الشخصية

آثرنا الحديث عن الشخصية فى هذا الفصل المبكر، تقديما لها على غيرها من موضوعات الكتاب؛ لما لها من أهمية قصوى فى موضوع بحثنا، حيث يدور حولها مضمون الكتاب ومادته الأساسية، وعنها تتكون بقية شعبه وأقسامه، كما أن الشخصية هى أساس البناء للنفس الإنسانية ومادتها الأصيلة، ويشمل الحديث عنها المباحث التالية:

المبحث الأول
التعريف بالشخصية والعوامل المؤثرة على تكوينها

المطلب الأول: التعريف الاصطلاحى للشخصية

هناك عدد من التعاريف للشخصية لدى علماء النفس، وجاءت متباينة فى بعض جوانبها، والسبب هو نظرة كل عالم للمفهوم الذى تعنيه الشخصية، فمنهم من نظر إلى الهيكل الخارجى والسمات الظاهرة، فعرَّفها على أساسها، وبعضهم نظر إلى السلوك والانفعال النفسى والاتجاه الخلقى فَنَعَتَ على ذلك، والبعض الآخر عرفها من حيث نظرة الآخرين إليها فقال:

(الشخصية هى ما تتركه صفات الفرد من انطباعات على الآخرين)[1].

وقال آخر هى: (المجموع الكلى لسمات الفرد التى تميزه عن غيره)[2].

وبعد دراسة عميقة ونظرة طويلة للشخصية وما تدل عليه، رأيت أن التعريف الجامع المانع الذى يمكن أن نقيس على أساسه الشخصية ونحكم به عليها، وهذا حسب اجتهادنا ـ هو أن الشخصية هى:

عبارة عن مجموع السمات أو الصفات التى تميز الفرد أو الجماعة عن غيرها سواء أكانت خُلُقية أو خِلْقِيَّة، فِطْرِية أو مكتسبة.

وذكرنا الفرد والجماعة؛ لأن الجماعة عندما تكون وحدة متكاملة تربطها مبادئ وأهداف ومنهج ثقافى أو عقدى أو مصلحة وثيقة ببرنامج خاص ـ تكون ذات صفات متشابهة، ومتماثلة، خاصة فى المظهر والمنهج والسلوك؛ لأن عوامل البيئة والمنهج يؤثران فى الشخصية، كما سنذكر إن شاء الله.

ولهذا فقد ورد فى المثل السائر: من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم. والإنسان مدنى بطبعه، كما يقولون، يتأثر بالمحيط الذى حوله، سلبا وإيجابا، فما بالك إذا كان الناس يرتبطون برباط العقيدة والتوجه والمنهج المعرفى، الثقافى والتعليمى والتربوى؟ أفلا يكون ذلك ذا أثر فى المجموعة، مما يجعلها ذات سمات مشتركة ومتشابهة؟

المطلب الثانى: تكوين الشخصية والعوامل المؤثرة فيها

توجد ثلاثة عوامل رئيسة تتضافر كلها، مجتمعة؛ لتكوِّن الشخصية، وإن تفاوت تأثير كل واحد منها عن الآخر، حسب قوته، وما يتاح له من فرص النجاح والتأثير. وتنقسم تلك العوامل إلى:

---

(١) و (٢) انظر: أصول علم النفس، ص ٣٧٩، د/ أحمد عزت راجح، وانظر: السلوك الإنسانى د/ انتصار يونس، ص ٢٩٦، دار المعارف بمصر (١٩٨٤ م).

عوامل داخلية ـ غالبا ما تكون وراثية ـ وعوامل خارجية، وعوامل دينية عقدية، حيث تشكل هذه العوامل شخصية الإنسان.

أولا: العوامل الداخلية

١ ـ العامل الوراثي

العوامل الداخلية المؤثرة فى الشخصية نوعان: نوع لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيه بأى نوع من أنواع التأثير؛ لأنه خارج عن مقدور البشر، وليس من اختصاصاته، اللهم إلا من قبيل دراسته ومعرفته، دون المساس بتعديله أو إلغائه وإن حاول بعض العلماء الاقتراب من ذلك، ولكنهم حتى الآن يقفون عنه بمعزل، ذلك هو العامل الوراثى، وهو ذو تأثير بالغ فى تكوين الشخصية، حيث يشمل أثره كل الصفات المكونة للشخصية، سواء أكان ذلك الأثر من ناحية الصفات الخِلْقية أو الخُلُقية، النفسية والعقلية، ويشمل الأول كل الصفات الجسدية والعضوية الداخلية والخارجية.

ولما لهذا العامل الوراثى من أهمية فقد حث الإسلام على الاعتناء به، خاصة عند النكاح فطلب من الإنسان أن يختار ويحسن الاختيار لمن يود معاشرتهم، فحث على تخير الأسر الصالحة وذات الصفات الحميدة، فقال، تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ... ﴾[1].

ولقد حث الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى أحاديث مروية عنه، وفى آثار أخرى، حث على تخير المكان الصالح والمنبت الجيد حتى إذا قدر له أن ينجب كان إنجابه صافى العرق والأصل من جميع النواحى، المرضية والعضوية والنفسية...

---

(١) سورة النور ـ من الآية (٣٢).

فقال، صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[1]. وجاء فى الأثر الذى يرويه ابن عدى عن أنس: (تزوجوا فى الحُجر الصالح فإن العرق دساس)[2].

وورد أيضا: (تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم)[3].

والتكوين الوراثى لا يمكن دفع خطره وتجاوز ضرره إلا باجتنابه من الأساس، إذا عرف، بألا يرتبط المرء بمن يعرف أن فيهم شيئا من ذلك، حيث يمكن أن يؤثر على نسله من بعده، ولعله لهذا السبب نهى الإسلام عن زواج الأقارب، وحث على زواج الأباعد، لما فى الزواج من الأقارب من مخاطر انتقال المورثات التى فى سلالة الأسرة.

٢ ـ الجهاز العصبى

أما النوع الثانى من العوامل الداخلية المؤثرة على الشخصية، فهو عامل يمكن معالجته ومداواته والتداوى من علله، إذا قدر الله الشفاء منه، خاصة مع تقدم العلوم الطبية التى فتح الله بها على أهل العصور المتأخرة؛ لكثرة المصائب والأمراض عندهم، نسبة لاختلاط الناس وانتقال الأمراض المستوطنة إلى بلدان عديدة بسبب سهولة المواصلات وسرعتها ويسرها.

والغريب أن هذا النوع لا يتعلق بالنفس، بل يتعلق بالجسد، وتركيبه العضوى وتفاعلاته الكيمياوية..

(١) الترمذى ـ كتاب النكاح رقم (٣)، ٣/ ٣٩٤، وابن ماجه ـ كتاب النكاح (٤٦).

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء، ٧/ ٢٥٣٥، وإتحاف السادة المتقين للزبيدى ١/ ٣٤، كنز العمال رقم ٤٤٥٤٩ وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعلجونى ٢/ ٧٧ والمغنى عن الأسفار فى جمل الأسفار للعراقى ٢/ ٤٢.

(٣) رواه ابن ماجه فى كتاب النكاح ـ حديث (١٩٦٨)، ١/ ٦٣٣، باب (٤) نكاح الأكفاء، رواه الحاكم فى المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٦٣، وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ولعل وجه الغرابة يختفى اختفاء النفس ـاتها فى هذا الجسد!! مادام أن النفس تحل فى هذا الجسد، ولا يدرى أحد بالتحديد واليقين أين مكان حلولها فيه، فلا استغراب ولا تعجب إن تحدثنا عن الجسد وما يصيبه من تباريح وآلام وصحة وعافية، وما فيه من أجهزة، ولنقل إن ذلك كله يؤثر على النفس الإنسانية، كما أنها بِدَوْرِها تؤثر عليه..

هذا الجهاز الذى قدمنا له تلك المقدمة والذى يعتبر من أكثر أجزاء الجسم حساسية وإحساسا وتيقظا وانتباها، بل وحيوية وفاعلية، هو الجهاز المصطلح على تسميته بالجهاز العصبى، حيث عن طريقه يتألم الإنسان، بل هو الذى ينقل ويعطى الإحساس بذلك، وهو الذى يوحى للإنسان الشعور بالراحة والصحة والنعيم، وهو الذى ملَّكه خالقه جهاز الإنذار المبكر ضد المخاطر المحدقة بالجسم من كل مكان وفى كل اتجاه.

فإذا كان الإنسان، صنعة الله، قد اكتشف أجهزة الضبط والتحكم (الكهروميكانيكية) فإن الله الذى أبدع صنع عقل الإنسان وهداه ليكتشف هذا الجهاز الآلى ـ قد جعل فى الإنسان جهازا للضبط والتحكم فى حركاته وإحساساته (الميكانيكية) الإرادية وغير الإرادية عن طريق هذا الجهاز العصبى، فسبحان الله الذى صنع كل شىء فأتقنه..

وصلة هذا الجهاز بعلم النفس أو بالأحرى بالنفس البشرية، هو أن الله قد وضع فيه القدرة على الإثارة والتوجيه التلقائى، التى يستجيب لها الإنسان، بالحزن والفرح أو الخوف أو الإقدام أو التراجع. ولقد وضع الله هذه الخاصية ـ خاصية التنبه ـ فى المادة (البروتوبلازمية) وهى أبسط المواد التى يتكون منها جسم الكائن الحى، وتمتاز بقابليتها للإثارة والاندفاع والتغيير، لكل المنبهات الخارجية..

وبفضل ما وضع الله فى الجهاز العصبى فى الإنسان، يستطيع الجسم أن يتفاعل مع بيئته الداخلية والخارجية، فهو يعتبر جهازا اتصاليا يربط بين أعضاء الجسم كلها ـ داخليا ـ وبين البيئة الخارجية عن طريق مراسلين أكفاء ومقتدرين ومدربين تدريبا ممتازا، ينتشرون فى كل أنحاء وحدود الدولة ـ الجسمية ـ الخارجية، وهم المسمون بأعضاء الحس مثل: اليدين، والأذنين، والعينين، واللسان، والجلد... كلها ترتبط بدائرة توجيه مركزية قاعدتها فى المخ، حيث يتم التحكم والتوجيه المركزى من هناك.. فسبحان الله المبدع الخلاق القائل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

(لقد اكتشف علماء النفس حقائق كثيرة عن فعالية الأعصاب، وهذه الحقائق بالغة الأهمية لدراسة علم النفس أو السلوك البشرى، ومن هذه الحقائق، أن العصبونة (الجملة العصبية) تنقل شحنة كهربائية على طول المحور عندما تستثار، وبذلك تثير عصبونات أو غدد وعضلات أخرى)[2]. تؤثر على سلوك الشخص وكل حالته داخليا وخارجيا، وبالتالى تتأثر النفس.

٣ ـ الغدد:

وكما أن للعصب أثره البالغ فى تكوين الشخصية، فإن الغدد عامة والغدد الصماء خاصة لها فاعلية قصوى فى تحوير الشخصية ونمائها، وكما هو معلوم لدى المختصين أن الغدد الصماء عبارة عن (أعضاء أو نسيج تفرز خلاياه مواد كيمياوية تؤدى وظيفة (فسيولوجية) عضوية، ولها أثر كبير على

---

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٨).

(٢) علم النفس الفسيولوجى، د/ كاظم والى أغا، ص ٦١، نشر دار الآفاق ـ بيروت ط ١، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

الحالة المزاجية للفرد، وعلى ذكائه، وكذلك على الصحة الجسمية عامة، وعلى نمو الفرد... وثمة تآزر وتكامل ما بين الجهاز العصبى والجهاز الغُدِّى، أبرز ما يبدوان فيه فى حالات التوتر الانفعالى)[1].

والذى يهمنا هنا، هو أن ما يصيب هذه الغدد من أمراض أو خلل فى وظيفتها، سواء بزيادة هرموناتها التى تفرزها أو بنقص تلك الهرمونات، فإنها فى كل تلك الحالات تسبب اضطرابا فى شخصية الإنسان، وتسبب له عاهة قد تكون مستديمة إن لم تعالج أو لم يمكن علاجها.

وهذا الأثر يتمثل فى أعراض كثيرة، منها على سبيل المثال:

القلق والتوتر النفسى المستمر، أو بطء النمو، مثل قصر القامة الشديد المؤثر أو ما يسمى بالقماءة، أو الطول المفرط الزائد عن الحد المناسب...

فمثلا الغدة الدرقية ذات صلة قوية ووثيقة بعمليات (الأيض) (التمثيل الغذائى) وهى العمليات التى يتم فيها التحول الغذائى داخل الجسم أو عمليات الهدم والبناء.

ولإفرازها الهرمونى حالتان، كلتاهما ضارة، ففى حالة زيادته تكون الغدة فى حالة حيوية ونشاط زائد، مما يتسبب للشخص فى حالة هيجان واضطراب عام وعدم استقرار، ويزداد التوتر العصبى والأرق والنحافة وارتعاش الأطراف وجحوظ العينين...

وهذا كله يؤثر على السلوك الشخصى للإنسان ويؤثر على إنتاجه وأدائه فى المجتمع وإبطال أو تعطيل الدور المنوط به..

أما فى حالة نقصان الإفراز فيصاب الإنسان بأمراض مزمنة، لا سيما إذا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣.

كان ذلك فى حالة الطفولة، حيث يتوقف النمو العادى، ويصاب الشخص بقصر القامة الشديد المخل، وإن كان كبيرا يصاب بأمراض منها مرض الاستسقاء، حيث يصاب المريض به بالوهن والتعب السريع والتخلف الذهنى والعزوف عن العمل. . .[1].

وكذا الحديث فى بقية الغدد الصماء التى سماها بعض العلماء بغدد الشخصية، نسبة لعلاقتها الوثيقة بسلوك الإنسان وتأثيرها فيه.

وليس مجالنا فى هذا الكتاب الحديث عنها بتوسع، ولا التعريف بخصائصها، وإنما القصد هنا، الإشارة إلى أثر العوامل الداخلية فى جسم الإنسان وأن لها أثرا على الشخصية بما تخلفه من أمراض أو عاهات أو أشكال خارجية تؤثر على نفسية الإنسان وسلوكه.

فإذا عرف الداعى أسباب دوافع بعض المدعوين التى تعوق العمل الدعوى أو تصدهم عن قبول الدعوة أو تحريض الآخرين وتنفيرهم منها، وعن طريق دراسته وملاحظاته الخاصة تَوَصَّل إلى أن هؤلاء الأشخاص مصابون بقصور فى بعض تلك الأجهزة، سواء كان طريق معرفته الملاحظة ثم العرض على الطبيب المختص أو كان التعرف عن طريق آخر استعان به فأرشده إلى ذلك، فالمهم هو أن يعرف أحوال مدعويه النفسية وسبب سلوكهم المعين والذى لا يرغب فيه، ثم يبدأ بالعلاج حسب ما يظهر له بعد التشخيص، وهذا بعض ما يمكن أن يستفيده الداعى من دراسة بعض هذه العلوم المتعلقة بشخصية المدعو، حيث إنه مطلوب ـ وبإلحاح ـ من الدعاة أن يكونوا على قدر كبير من العلم والدراية بكل ما يؤثر على عملهم الدعوى وما يمكن أن يشكل عقبة فى طريقه، وكذا التعرف على كل ما يمكن أن يعينهم ويساعدهم فيه،

(١) للتوسع انظر: أصول علم النفس، ص ٤٢٠، د/ أحمد عزت، وعلم النفس الفسيولوجى ص ١٢٠، كاظم والى أغا.

لا سيما أن متطلبات عصرنا تغيرت كثيرا عن متطلبات الحقبة الماضية، حيث كانت الحياة سهلة وميسرة، والأمور ليس فيها تعقيد، والناس على قدر كبير من البساطة فى كل أمورهم وحاجاتهم، من حيث المركب والملبس والعيش، أما الآن فقد اضطربت الأمور، واختلط بعضها ببعض، وتدخل بعض الناس فى بعضهم؛ بسبب سهولة المواصلات وسرعة الانتقال من بلد إلى آخر، مما جلب معه كثيرا من التعقيدات الحياتية، وأنواعا من الأفكار والمعتقدات، وكذا الأمراض المتنوعة المسببة للعقد النفسية؛ ولهذا نشط العلماء والباحثون فى أسباب ذلك، ومحاولاتهم مستمرة لاكتشاف سبل العلاج، ولهذا فقد تنوعت العلوم وتفرع بعضها عن بعض؛ لتكون متخصصة فى دقائق تلك الأمراض وعلاجها، وبالتالى فقد تيسرت المعرفة وسهل طريقها، فلزم الدعاة الاجتهاد فى الاطلاع على ما يخصهم بما يفيدهم فى الدعوة إلى الله، ومن أهم ذلك العلوم التى تعالج أحوال الناس، وتحاول تفسير سلوكهم، لِمَ يفعلون هذا؟ ولِمَ يتركون ذاك؟ مستعينا على ذلك كله بمصادر الإسلام الصحيحة.

ثانيا: العوامل الخارجية

هذا هو العامل الثانى المؤثر فى تكوين الشخصية وتعديلها، وهو عامل متشابك ومتداخل الأطراف المؤثرة على الشخصية، فهو مثل الشجرة المتكاملة الغذاء من حيث الرى وعناصر التربة الصالحة لنموها، فتنمو وتكبر وتتشابك أغصانها، وتورق، وتثمر ثمارها، ويلتف بعضها حول بعض...

هذا العامل الذى مثلنا له بالشجرة هو:

البيئة:

وهى عامل يدخل وينضوى تحته عدة عوامل متفرعة عنه، يجمعها اسم البيئة، وسنوجز الحديث عن تلك الأفرع فى تلخيص موجز للدلالة على أثره

فى تكوين الشخصية، ولكى يستفيد الدعاة من التعرف على أثر تلك العوامل المتشابكة المتشابهة على مدعويهم.

وهذه العوامل إجمالا:

أ ـ الأسرة.

ب ـ المحيط الثقافى الواسع فى البيئة، ويشمل:

١ ـ الجيران.

٢ ـ الأصدقاء.

٣ ـ المدرسة.

٤ ـ الثقافة المعرفية الأخرى، مثل:

ـ التلفاز.

ـ الإذاعة.

ـ السينما.

ـ الكتب.

ـ المجلات والجرائد.

جـ ـ العوامل المناخية، وتشمل:

١ ـ طبيعة البيئة من حيث التضاريس: سهول، جبال وصحراء.

٢ ـ طبيعة البيئة من حيث الطقس: حار، بارد، ممطر وجاف.

د ـ البيئة المهنية وتشمل:

١ ـ البيئة الصناعية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

٢ ـ البيئة الزراعية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

٣ ـ البيئة الرعوية وأثرها على الشخصية والنفس والسلوك.

١ ـ أثر المحيط الأسرى فى تكوين الشخصية:

الأسرة تتشكل من أربعة أفراد أو مجموعات، وهم:

الأب والأم والإخوان الذكور والأخوات الإناث.... وكل واحد من هؤلاء له أثر فى تكوين وتنمية الشخصية، وكل واحد يؤثر فى شخصية الآخر، وخاصة الإخوان فى مجموعهم، ذكورا وإناثا، وربما يكون الأثر جماعيا مثلما هو فردى.

وتعتبر الأسرة هى الجماعة الأولى التى يتصل بها الشخص، ويكتسب عن طريقها سلوكه ومعاييره الأخلاقية وقيمه الاجتماعية وفكره المستقبلى، بل وعقيدته الدينية...

ويتأثر الطفل ـ وهو أول الشخصية ـ بالحالة التى عليها الأسرة، والتى نجملها فى الأسئلة التالية، ثم نعقب عليها بإيجاز مستنتجين أثر كل حالة فى الأسرة على الشخصية:

١ ـ هل الأسرة عامية أو متعلمة؟ كلها أو بعضها؟

٢ ـ هل هى متدينة أو لا؟ وإذا كانت متدينة فهل هى متمسكة؟

٣ ـ هل لها تقاليد وأعراف تحافظ عليها وتعتز بها؟

٤ ـ هل تُعْنَى بالتربية أو تترك الطفل هو وشأنه؟

٥ ـ ما الحالة الاقتصادية للأسرة: أَغَنِيّة مترفة أم فقيرة معدمة؟

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يتلخص أثرها على الشخصية فى أن الأسرة

المتعلمة تحاول أن تنمى فى أطفالها قِيَماً بعينها، خاصة القيم التى تؤمن بها، وتحاول غرسها فى مخيلته وتنشئته عليها، وتعليمه إياها، إضافة إلى عنايتها بتعليمه ومراعاة سلوكه خارج المنزل والاهتمام به (أكاديميا) وتربويا، ولو لمجرد المكسب المادى الذى يعود عليه وعلى الأسرة مستقبلا.

أما الأسرة العامية فإن عنايتها بالتربية ـ وكذا بالتعليم ـ ضعيفة أو معدومة نسبة لفقدها لذلك، حيث لا تستطيع أن تنظر فى ضعف الابن من الناحية التعليمية وربما اكتفوا بأن يحثوه على القراءة فقط دون التوجيه التعليمى الفعلى، وأنهم يفقدون إعطاءه القيم والمعايير التعليمية الإرشادية المكتوبة أو تصحيح أخطائه فى ذلك، وبهذا تفقد مثل هذه الأسرة مبادرة القيادة لشخصياتها، فتعتمد الشخصية على المحيط الخارجى مثل الأصدقاء...

أما النقطة الثانية، وهى تَدَيُّنُ الأسرة وعدمه. فإن لذلك الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية فإن كانت الأسرة غير متدينة وهى متعلمة فإن أثرها على شخصية الناشئ يكون بابتعاده عن كل ما له صلة بالدين، وبهذا تتشكل شخصيته، إلا إذا وَجَدَ مؤثرا آخر فى الخارج، وكان أثره أقوى من أثر تلك الأسرة.

وبمثل هذه الأسرة يتأثر الطفل، فإذا كان الأب يدخن أو يشرب الخمر أو يقامر أو يتعاطى الحرام... فإن الأبناء يتأثرون به، ويحاولون أن يحذوا حذوه، حتى ولو كان ينهاهم عن ذلك أو عن تقليده فإن نهيه لا يفيد لاقتدائهم به عمليا، فالأطفال يتأثرون بالمحاكاة العملية ويميلون إليها أكثر من القول.

أما إذا كانت هذه الأسرة غير المتدينة غير متعلمة فإن أثرها على الطفل وفى تكوين شخصيته يكون أقل من الأولى؛ لعدم تركيزها على المفاهيم

والقيم المعيارية عن طريق التعليم، خاصة عندما يكبر الطفل فإن اكتسابه للمعارف يكون عن طريق المحيط الخارجى.

أما الأسرة ذات الدين فهى إما أن يكون تدينها فى نفسها وسلوكها، ولا تحاول غرسه فى أطفالها وحملهم عليه، أو أن تكون ذات مبادئ تسعى لبذرها فى ناشئتها وأخذهم بها، فإن كانت الأولى فإن شخصية الطفل تتأثر بها فى الصغر وربما انحرفت عن ذلك عند اتصالها بالمؤثرات الخارجية، كما أنها لا تقوى على مقاومة المؤثر الخارجى؛ لأنها لم تعلم وتمرن على تلك القيم الأسرية، إلا إذا كان المحيط الخارجى يتسم بالصلاح ففى هذه الحالة يكون الأثر له هو وليس للأسرة.

أما فى الحالة الثانية فإن الشخصية تستمر فى اكتساب قيمها من الأسرة، وتأخذ صفة الاستمرارية والمحافظة والمقاومة للمؤثرات الخارجية، ذلك لأثر التركيز القوى من الأسرة ومحاولتها المستمرة لغرس قيمها فى شخصيات أطفالها وتعهدها لهم شرحا ودرسا وتعليما وتربية، وهذا هو المطلوب من الدعاة دراسته والعناية به وتعميقه فى أذهان المدعوين.

ولما للأسرة من أهمية بالغة فى تكوين الشخصيات، فقد أولاها الإسلام العناية التى تستحقها، فأوصى الأب بأن يحسن اختيار الزوجة، ويتعهدها بالتربية والتعليم وتهذيب السلوك وأخذها إلى الحق وترغيبها فيما عند الله بالحسنى وجعلها تقف على ذلك بنفسها بإعطائها وتعليمها ما يعينها على ذلك؛ حتى تكون اللبنة التى يكتمل بها بنيان الأسرة، فقد قال، تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾[1]. وقال،

(١) سورة النور ـ من الآية (٣٢).

صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1].

وقال حاثا على عدم رد الشخص الصالح من الزواج:

(إذا خطب من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[2].

ثم بعد ذلك أمر الآباء بحسن تربية الأبناء وأن يوصوهم ويبصروهم بطريق الخير وهداية الصراط المستقيم، ويهدوهم إلى السلوك القويم والمنهج السليم؛ ولهذا قص علينا القرآن وصية لقمان لابنه فى قوله، تعالى، على لسانه يوصى ابنه بإعلان التوحيد الخالص ونفى الشريك لربه الخالق: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

ثم علمه كيف يستنتج ويستدل على وجود خالقه من خلال النظر إلى مخلوقاته، ولفت نظره إلى دقائق علم الله: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[4].

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب النكاح (١٥) باب الأكفاء فى الدين ـ الفتح ٩/ ١٣١، ومسلم: كتاب الرضاع حديث (٥٣)، والمسند ٢/ ٤٢٨، والترمذى كتاب النكاح باب (٤) ٣/ ٣٩٦، والدرامى: كتاب النكاح ـ باب تنكح المرأة لأربع ٢/ ١٣٣ ورواه بقية أصحاب السنن.

(٢) سبق تخريجه ـ انظر ص ١٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) سورة لقمان ـ الآية (١٣).

(٤) سورة لقمان ـ الآيات (١٦ ـ ١٩).

هذه الآيات الموجزة تضمنت كل مجالات السلوك الحميد التى تجعل من المرء شخصية ذات اعتبار وقيمة ونهت عن كل سلوك مذموم يحط من قدر الإنسان ويجعله شخصية تزرى بالإنسان المكرم على كل المخلوقات، وتضمنت أسس وضوابط التربية المثلى للأبناء التى تجعلهم صالحين نافعين لمجتمعهم، كما أعطت إشارات للنفسية المهذبة الهادئة المطمئنة وشملت (سايكولوجية) النفس والسلوك على حد سواء.

والأسرة إذا كانت تعتز بتقاليدها وأعرافها، فإننا نجدها تعتنى بالتربية على أسس ومبادئ تلك الأعراف، وتحاول تنشئة أطفالها وفقا لها، فترتسم شخصيتها فى شخصية الأطفال، سواء أكانت تلك الأعراف حميدة أو غير ذلك.

وعلى العكس منها الأسرة الأخرى التى لا تهتم بالموروثات القديمة، فإنها تهمل تربية أبنائها، وتتركهم وشأنهم يشبون على أثر الشارع والمدرسة والوسط العام..

ولقد حرر الإسلام الناشئة من الأثر السيئ للوالدين، وبذر فيهم بذور قوة الشخصية، ولقنهم بالجرعات الواقية ضد عدوى الآباء إذا كانت شخصياتهم غير سوية ومنهجهم غير مستقيم، حتى ولو كانا يتمتعان بشخصية قوية وموثرة، وحاولا جهدهما صرفهم عن الجادة فقال، تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة لقمان ـ الآية (١٥).

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يوجه بنفس الطريقة ويعمم ذلك للفائدة القصوى:

(لا طاعة لمن لم يطع الله، عز وجل)[1].

أما الحالة الاقتصادية فهى بدورها ذات أثر بالغ الأهمية فى تكوين الشخصية منذ الصغر؛ ذلك لأن لكل من الغنى والفقر صوره المنعكسة على الأسرة، وبالتالى على تعاملها مع أبنائها، لنأخذ مثلا: حالة الأسرة الغنية لننظر ما ينتج عن ذلك.

إن الغنى تتبعه مظاهر وسلوكيات فى وسائل العيش وطريقته، تؤثر على الشخصية تأثيرا نفسيا وجسديا وسلوكيا.

فمنها الترف والبطر بالنعمة، وعدم الإحساس بآلام الآخرين وحرمانهم النفسى والجسدى، وهذا فى الغالب الأعم باستثناء الحالات الخاصة، وبالتالى فإن الطفل يشب وهو يجد كل ما يحتاج إليه أمامه سهلا وميسورا، لا يحتاج فى الحصول عليه إلى معاناة وكد، وهذا يسبب له الزهادة فى كثير من متع الحياة التى يستطيبها غيره ويستعذبها، ويصبح لذيذ الأشياء ومرها عنده سواء، وهذا بدوره ربما تسبب له فى معاناة نفسية أدت به إلى انحراف سلوكى، فنحن نرى أبناء كثير من المترفين يعملون أعمالاً لا تليق بالمجتمع السليم، بل وكثير منها فيه خطر على سلامة المجتمع، فتجد الواحد من هؤلاء إذا خرج بسيارته لا يسير بالطريقة المهذبة اللائقة، ولا يتبع أو يتقيد بضوابط حركة السير المتعارف عليها، بل ينزلق ويجنح هنا وهناك، ويزيد من السرعة فى المنعطفات وأماكن الازدحام التى لا يسمح فيها بالسرعة الزائدة...

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٢١٣، وابن ماجه: كتاب الجهاد (٤٠، ٦٥).

والخلاصة أن الغنى لدرجة الترف والإسراف يصيب صاحبه بنوع من الرتابة المميتة للنفس، المسببة للقلق والاضطراب، وتبدو الحياة بأسرها عنده لا طعم لها ولا قيمة لها، فهو إن أكل أشهى المأكولات لا يذوق لها طعما، وإن شرب أفضل المشروبات تغص فى حلقه، وإن ركب أحسن مركب يرى كأنه يركب على خشبة جافة، وإن سكن أجمل المساكن لا ينعم لها بطيب هدوء نفسى، وإذا أثث بيته على أحسن الوجوه يكون ساكن الأكواخ أسعد منه. هذا إضافة إلى ما يصيبه من طغيان وكبر لا يرى مثله أحدا على وجه الأرض، فيزدرى الناس ويحقرهم.

وهذه حالات نفسية مرضية يلتمس علماء النفس لها علاجات كثيرة، ولكنهم فى كثير من الأحيان لا يظفرون بشىء حاسم، ولكن الإسلام عالج تلك الحالات النفسية ذات المظاهر السلوكية الاجتماعية بوسائل عديدة ومتنوعة، حسب كل حالة، وكل ما يعترى الشخص منها.

فهو من البداية يغرس فى النفس أن هذا المال لا يملكه الإنسان بالأصالة، وإنما بالنيابة والاستخلاف، وصاحبه أو مالكه الحقيقى هو رب المال ورب الشخص المستحوذ عليه، وقد وضع لملكه شروطا إن لم ينفذها المستخلف حدث له ما ذكرناه سابقا، وإن فعل سلم وكان أهلا لأن يتمتع بلذته، ولهذا فقد أمر بالإنفاق منه كشرط من تلك الشروط فقال، تعالى: ﴿ ... وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴾[1].

وجعل عدم الإنفاق نوعا من أنواع الهلاك والإنفاق نوعا من الإحسان: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

(١) سورة الحديد ـ من الآية (٧).
(٢) سورة البقرة ـ الآية (١٩٥).

وحث على توزيع المال بين مستحقيه، خاصة الزائد عن الحاجة؛ لكيلا يتركز فى أيدى أناس قليلين، ويظل باقى الناس فى حرمان وعوز، كيفما كان مصدر هذا المال يلزم منع تركزه فى جهة واحدة، كما تفعل الرأسمالية الطفيلية فى البلاد الغربية غير المسلمة، وفى البلاد المسلمة التى تنهج الطريق الغربى فى الجانب الاقتصادى..

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ... ﴾[1].

وجعل المال الزائد عن الحاجة حقا ثابتا للفقراء خاصة، ولجميع أوجه النفع للمجتمع عامة:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[2].

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴾[3].

وصاحب المال الزائد عن الحاجة ـ كما ذكرنا ـ متكبر جبار وباغ:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[4].

ومن المظاهر السيئة للترف أن الأطفال ينشئون فى حياة رخوة ناعمة، مما يجعلهم لا يقوون على أعباء الحياة، خاصة إذا أصابتهم شدة، وهذا ضار بالمجتمع فى كل نواحيه، حيث تكون الشخصية باهتة وغير فعالة..

أما الأسرة الفقيرة فلها محاسن ولها مساوئ على تكوين شخصية أبنائها،

---

(١) سورة الحشر ـ من الآية (٧).
(٢) سور المعارج ـ الآيتان (٢٤ و ٢٥).
(٣) سورة التوبة ـ من الآية (١٠٣).
(٤) سورة العلق ـ الآيتان (٦ و ٧).

فمن المحاسن أن الناشئة يشبون وعودهم أصلب، وعزمهم أقوى. وعندهم قدرة كبيرة على التحمل والتكيف مع كل الظروف، ولا تظهر عليهم علامات المترفين التى ذكرناها سابقا، وغالبا ما يتمتعون بحيوية ونشاط وفعالية.

ومع ذلك كله فإن حالات الفقر الشديدة تأتى بنتائج غير حميدة فى انعكاساتها على الشخصية، حيث الجرى واللهاث وراء كسب لقمة العيش تجعل الأسرة لا تعطى اهتماما لتربية أبنائها، ولا تعتنى بتعليمهم وتهذيبهم، وهذا ينتج عنه ضرر على الشخصية مستقبلا، كما نجد بعض المعوزين يكونون ناقمين وحاقدين على أصحاب الثراء، وربما حاولوا إيذاءهم..

والنموذج الأمثل لذلك هو التوسط، أى الحالة الاقتصادية المعتدلة المتوسطة، فهذه نتائجها فى التربية أفضل من السابقتين.

ففى الجوانب التربوية يرى بعض الباحثين (أن التنشئة الاجتماعية فى المستويات الاقتصادية الاجتماعية الدنيا تصطبغ بالطاعة التى يبالغ الأب فى فرضها على أبنائه... فيما نجد أن تلك التنشئة تصطبغ فى المستويات الاجتماعية المتوسطة بالمحافظة على العادات والتقاليد والقيم، وتعويد الأطفال على ضبط النفس...)[1].

والتقليل من الاستجابة لكل مطالب الأطفال المادية، وتعريفهم بأنه ليس كل شىء يمكن الحصول عليه، وأن الإسراف فى مثل هذه المطالب يضر بهم مستقبلا، مع تعريفهم بأن لهم إخوانا آخرين معدمين لا يجدون الضرورى من القوت واللباس، مع تعويدهم الاعتماد على أنفسهم فى كثير من حاجاتهم، وتعريفهم بأن هذا المال هو مال الله، وأن هناك من له الحق فيه معنا، وأننا نهينا عن الإسراف والتبذير مثلما نهينا عن التقتير... هذا كله لمن

(١) علم النفس الاجتماعى، د/ فؤاد البهى السيد، ص ١٩٠ طبع دار الفكر العربى بمصر (بدون تاريخ).

يعى منهم ويفهم، ولقد حاولت أن أطبق ذلك على أبنائى ابتداء من سن الثالثة فما فوق فوجدتهم يفهمون بعضا من ذلك، خاصة من بلغ سن الرابعة، ولكنهم يكثرون من الاستفسار حول تلك المفاهيم، ويبدو أن ذلك ناتج عن محاولتهم الفهم، فلو صبر الأب أو الأم أو المربى عليهم وأعطاهم جزءاً من وقته لاستطاع أن يجعل منهم شخصيات ذات اعتبار ومكانة مرموقة مستقبلا.

ومن جانب آخر فإن هذه الحالة الوسطية للأسرة ـ وهى حالة عدم الثراء الشديد أو الفقر الشديد ـ تجعل الأسرة فى حالة من الاستقرار، وتعطيها نوعا من الفراغ فى الوقت لكى تصرفه فى الاهتمام والعناية بالتنشئة، بخلاف الحالتين السابقتين، ذلك لأن الغنى مشغول بماله وحساباته الداخلة والخارجة... والفقير مشغول باللهاث وراء جمع ما يسد به رمقه، وربما ظل يعمل طول اليوم وجزءا من الليل ثم ينهض مبكرا... وبالتالى لا يجد وقتا للعناية بأطفاله، بل ربما أشرك معه الأطفال أنفسهم فى العمل، وبالتالى يفوت عليهم كثيرا مما يمكن أن يعينهم فى اكتساب ما ينمى شخصياتهم من المعارف والاستذكار...

وكيفما كانت أحوال الأسرة الاقتصادية، فإن مدارس علم النفس المختلفة وكذلك المدارس التربوية والاجتماعية ومدارس علم النفس الاقتصادى ـ كل تلك المدارس لم تجد العلاج القاطع لهذه المشاكل الناجمة عن تلك المستويات المعيشية، ولكن الإسلام أوجد لها الحل والعلاج النفسى الروحى الذى يكسبها الطمأنينة، وهى أفضل ما تدفع به ذلك الهوس والهلع النفسى القاتل، سواء أكان المتعلق بجمع الثروة وتكديسها أو الخوف من زوالها، أو ذلك الناتج عن حالة العدم المدقع، هذا الهوس الاقتصادى الذى جعل المنظمات التى تعنى بالسكان والنماء الاقتصادى تكثر من صيحاتها مطالبة

بتحديد النسل وتقليل السكان، وإنذارها بأن المخزون الغذائى فى تدن وعلى وشك النفاد، فى هذا الجو المتشائم طمأن الإسلام النفس بأن الرزق الحقيقى بيد الله، وأن الإنسان مطلوب منه السعى والحركة والتخطيط بقدر ما يستطيع...

﴿ ...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1].

وقال، تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[2].

والهدوء النفسى والطمأنينة من أهم عناصر نماء الشخصية نماءً صحيحا سليما، ولهذا فى الآية الأولى توجه الخطاب القرآنى لرزق الآباء أنفسهم، مذكرا إياهم بأن الله الذى رزقهم هم من غير حول منهم ولا قوة، هو القادر على رزق أبنائهم، فلا حاجة بهم ـ إذن ـ إلي القلق والخوف من ذلك.

وفى الثانية بدأ بطمأنة الآباء بألا يخافوا على مستقبل الأبناء؛ لأن الذى خلقهم ضامن لرزقهم، وسيدبر لهم أمرهم، بل تزيد الطمأنينة عندما يعلمون أن ذلك الرزق يتعدى أبناءهم هم ليصلّ إليهم هم أنفسهم، وتزيد الراحة والسكينة عندما يعلم الشخص أن الله الذى يرزق كل الدواب من الحشرة إلى البقرة، قادر على رزقهم، وأنهم خلق من جملة تلك الحيوانات، وبهذا يوفر الإسلام للبشرية هذا العامل النفسى من الجانب الاقتصادى؛ حتى يكون الأشخاص من ذوى الثبات واليقين الذى هو عمود رئيس فى الحياة الإنسانية الهادئة، يقول، تعالى:

---

(١) سور الأنعام ـ من الآية (١٥١).

(٢) سورة الإسراء ـ الآية (٣١).

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وزيادة فى طمأنة النفس الإنسانية بوضع شىء محسوس ملموس أمامها، فى مجال اكتساب الرزق، يضع الله، تعالى، نموذجا مقارنا يعايشه الإنسان العاقل ليل نهار، ولا يستطيع إنكاره بحال، وهو يرزق ويطعم على مرأى ومسمع من بنى البشر، ولم يشك من ضيق فى العيش، ذلك النموذج هو كل ما دب على الأرض، وهو لم يزرع ولم يحصد ولم يدخر ولم يكد ويجد فى التخطيط طلبا للرزق، ومع ذلك يأتيه رزقه مثلما يأتى الإنسان رزقه، والفرق الوحيد هو أن الله جعل رزق الإنسان مقرونا بالسعى المصحوب بالتخطيط والتدبير والتفكير، وهو أمر مطلوب شرعا لابد منه، ولكن الهلع والجزع والفزع هو الممنوع، كما أن التدبير الشيطانى المنافى للتوحيد كذلك ممجوج وممقوت، ولا يليق بالإنسان المكرم بالعقل المسلح بالفكر، انظر معى، كيف يذكِّر القرآن الإنسان بأن الله الذى رزق تلك المخلوقات هو نفسه الذى رزق الإنسان، والمقارنة هنا ليطمئن الإنسان، وليعرف أن حقيقة الرزق الذى يأتيه ليس من محض اجتهاده، بل هو فى الأساس رزق من الله، ولكنه مقرون السبب بحركة الإنسان ومعاناته فى طلب ذلك، وكذلك تفعل تلك الحيوانات، فهى تسعى، تغدو وتروح، ولكن الفارق بينها وبين الإنسان هو أنها تفعل ذلك وهو متوكلة، كما فى الحديث الآتى، والإنسان يفعل ظنا أنه من جدِّه واجتهاده:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

ويقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، داعيا الإنسان ليسعى طلبا للرزق

(١) سورة هود ـ الآية (٦).

(٢) سورة العنكبوت ـ الآية (٦٠).

مع تخطيط وتدبير لذلك واجتهاد، ولكن كل ذلك يجب أن يصحبه التوكل على الله، حتى لا يصاب المرء بالخوف والذعر فيطاب الرزق مشتطا وهو من الحرام، مذكراً إياه بأن خلق الله غير الإنسان، يسعى لرزقه، مع التوكل:

(لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا)[1].

ولقد أطلنا الحديث والتحليل حول المسألة الاقتصادية؛ لأن لها الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية وفى التأثير عليها فى أطوار حياتها كلها، بل يؤثر الاقتصاد على شخصية الأمم والشعوب، مثلما يؤثر على شخصية الفرد؛ ولهذا فقد كثر ذلك فى القرآن الكريم، وكذا فى السنة النبوية؛ لِيُدَلِّلاَ على أن المشكلات الاقتصادية لا تؤثر على الشخصية المؤمنة إيماناً كاملاً تاماً لتوكلها على الله وطلب الرزق منه، ولأن الشخصية المسلمة تعرف:

﴿ ... أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾[2].

ب ـ المحيط الثقافى:

المجال الثقافى الواسع فى البيئة التى تنشأ فيها الشخصية وتعيش وتشب فيها، له أثر بالغ وبيّن فى تكوين الشخصية.

ويشمل مجالات عديدة تتشابك وتتعاون كلها لتشكل الشخصية، ونفضل أن نلخص نتائجها بإيجاز وعموم فيما يلى:

١ ـ الجيران:

الجار هو أول من يفتح الشخص عينيه عليه، بعد الأسرة، وربما كان إلى

(١) رواه الترمذى: كتاب الزهد، باب (٣٣) فى التوكل على الله حديث رقم (٢٣٤٤) ٤/ ٤٩٥، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١/ ٣٠، وابن ماجه فى السنن، كتاب الزهد (١٤).

(٢) سورة الروم ـ من الآية (٣٧).

جانبها لملاصقته للأسرة والمداخلة الحاصلة بين الأسرة والجيران، فالطفل منذ الصغر يأخذ من الجيران عاداتهم وأفعالهم، من داخل بيوتهم وفى خاصتهم، وينقل كل ذلك إلى ذاكرته التى تختزنه وتستوعبه لمستقبل زمانها.

ولكى تنمو الشخصية نموا حسنا، لابد من تخير الجار قبل اختيار الدار، أو إذا لم يكن بد من جوار أىِّ جار، أو لم يكن للإنسان الاختيار - يلزم معالجة صلاح الجار ودفع شره بأمور أخرى، مثل الإحسان إليه، وتوثيق الصلات معه للتأثير فيه بالسلوك الحسن، أو تعليمه ما يمكن أن يُحَسِّنَ به سلوكه، حتى يعيش معه جاره فى مأمن.

ولقد عالج الإسلام موضوع الجار بأنواع جاذبة له ودافعة لشره ومعدلة لسلوكه، فأوصى به خيرا، وأمر بالإحسان إليه ورعايته وتفقد أحواله وسد حاجاته... وهذا أفضل ما يقرب الجار إلى جاره ويجعله يألفه ويأنس به؛ حتى يستطيع استمالته وتحسين وضعه الخلقى والسلوكى العام:

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1].

وهناك نوع آخر له معنى من معانى الجوار، وهو الذى يكون بمعنى توفير الحماية والأمن للشخص، حيث يأوى هذا الشخص أو الجماعة إلى جهة ما تكون لها قوة تحمى بها وتدفع بها الأذى عن المستجير، سواء أكانت القوة معنوية أو حسية، والمستجير يأتى فى حالة خوف على نفسه أو ماله أو عرضه، ومعلوم أن الخوف أحد مسببات اهتزاز الشخصية، ودافع نفسى لعدم الاستقرار النفسى، فالإنسان الخائف تجده مضطرباً ومهزوز الشخصية، ولا

(١) سورة النساء - الآية (٣٦).

يستطيع أن يقرر شيئا من تلقاء نفسه لتملك الخوف تفكيره وشله، فإذا توافرت له الحماية والسكن وهدأ ـ عادت شخصية سوية.

كما أن المستجار يتأثر بمن يجيره ويأخذ من شخصيته وفكره، وربما تأثر به عقديا وسلوكيا؛ ولهذا جاء الجوار عاما ولو للمخالف فى الدين، حتى يكون ذلك داعيا له لمعرفة ما عند المجير من خير وفضل وعلم فيتم له الأمن، وكذا التعرف على شخصية المجير ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ولقد أوصى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالجار والإحسان إليه وتأمينه من الجوانب الأمنية والمعيشية والاجتماعية، بل وتوعد من يُرَوِّعُ جاره بأشد أنواع الوعيد حيث قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه)[2].

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم، قوله: (لا يشبع الرجل دون جاره)[3].

وقال أبو ذر، رضى الله عنه: (أوصانى خليلى، صلى الله عليه وسلم، فقال: إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها)[4].

٢ ـ الأصدقاء:

إن أثر الصديق على الشخصية من القوة والمتانة بحيث يمكننا القول بأنه لا

(١) سورة التوبة ـ الآية (٦).

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب الأدب، باب (٢٩) حديث رقم (٦٠١٦) الفتح ١٠/٤٤٣، ومسلم: كتاب الإيمان (٧٣).

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ١/٥٥.

(٤) رواه الدارمى فى سننه: كتاب الأطعمة، باب فى إكثار الماء فى القدر، ٢/١٠٨، دار الكتب العلمية.

مزاحم له ولا مماثل، ودليل ذلك أن نفوس الأصدقاء وميولهم وعواطفهم - وربما ثقافتهم - تكون متشابهة ومتقاربة، وأراءهم وأهواءهم متداخلة، وناتج ذلك كله يبرز فى المظهر السلوكى والدافع النفسى، مما يجعلهم يؤثر بعضهم على بعض.

ولقد شاهدتُ أن شخصا صادق آخر، وكان أحدهما يملك شخصية أقوى، بما لديه من ثقافة، وتعليم وسلوك معين ومنهج خاص فى الحياة، وتلازما زمناً امتد إلى عامين، وكنتُ أعرف صاحب الشخصية القوية قبل الآخر عن قرب؛ وكانت له سلوكيات معينة يتميز بها تبرز فى حركاته، وبعد مرور حوالى عام ونصف تقريبا، لاحظت أن الصديق الأخير قد تأثر بسلوك الأول، وبدأت تظهر عليه نفس سلوكيات وتصرفات وحركات صاحبه ذى الشخصية الأقوى. مع العلم أن بعض تلك السلوكيات غير لائقة اجتماعيا، ولكن مع هذا كله فقد تقمصها الأخير، وأضحت تشكل جزءاً من ملامح شخصيته..

ولما للصداقة من أثر فى الشخصية سلبا أو إيجابا، فقد حث الإسلام على تخير الأصدقاء وملازمة الصديق الصالح فقال، صلى الله عليه وسلم:

(إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)[1].

وقبل ذلك قال الله، تعالى:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

---

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب البيوع باب (٣٨)، ٤/ ٣٢٣، ومسلم بشرح النووى، كتاب البر، ١٦/ ١٧٨، والمسند لأحمد ٤/ ٤٠٤، وهذا لفظ مسلم.

(٢) سورة الزخرف - الآية (٦٧).

وورد فى المثل المشهور من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم.

وقديما قيل:

عن المرء لا تَسْأَلْ، وسَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وعمل الدعاة هو حث الناس على مخالطة ومصادقة الأفاضل من الناس من ذوى العلم والفضل والخلق والمروءة؛ حتى يكتسبوا منهم قوة الشخصية فى الحق وسماحتها فى الخلق. وخلاصة القول، أن تحوير السلوك المكوِّن للشخصية فى البيئة يرجع إلى ما يسمى بالجماعة المرجعية الأولى (وهى الجماعة التى ينسب إليها الفرد سلوكه الاجتماعى ويقيمه فى إطار معاييرها وقيمها، واتجاهات وأنماط سلوكها المختلفة...)[1]. وتشمل الأسرة والجيران والأصدقاء وزملاء الدراسة، والأخيران يسميان بجماعة النظائر؛ حيث يكون التشابه فى العمر والسلوكيات، والتأثير هنا متبادل، حيث يؤثر كل فى الآخر، وربما طغى تأثير بعضهم على بعض إذا كان منهم من يمتلك شخصية أقوى.

٣ ـ دور المدرسة فى تنمية الشخصية:

كان فى السابق يعتمد دور نماء الشخصية بصفة كبيرة على الأسرة التى تتشكل من تقاليدها وأعرافها وعاداتها شخصية الناشئة، ثم يزاحمها فى ذلك المحيط القبلى التقليدى المحافظ.

ولكن بعد ظهور المدارس وانتشارها والتوسع فى التعليم مع مجانيته وإلزاميته ـ خاصة فى المراحل الأولى ـ أصبح دور الأسرة يزاحم مزاحمة قوية، إن لم نقل أصابه شىء من الاهتزاز، خاصة إذا كانت الأسرة أمية أو لم تعتن بالتربية.

(١) انظر: علم النفس الاجتماعى، ص ١٩٧، د/ فؤاد البهى السيد.

وأثر المدرسة يرجع لبرامجها التعليمية والثقافية، ولأنها تعطى الطفل المرجعية المعرفية التى يتطلع إليها، ويكتسب عن طريقها معلوماته الأولى فى التدرج المعرفى الثقافى، ويشعر بأن ما يجده فى المدرسة من معارف وعلوم لا يجده فى الأسرة.

فكما أن المدرسة تحقق له طموحه المعرفى الثقافى التعليمى، فهى تعده لتحقيق طموحاته الأخرى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مثل أن يكون صاحب مكانة فى الدولة أو فى المجتمع عامة أو أن يجد له وظيفة مريحة تحسِّن له وضعه المعيشى.

وفى المدرسة تتكون شخصية الطفل بما يتلقاه من علوم ومعارف، حسب المنهج المتبع فى كل بلد، فإن كان المنهج سليما وصحيحا وفق المعيار الإسلامى، نشأ الطفل بشخصية إسلامية نظيفة سوية، وإن كان المنهج عكس ذلك فسوف تضطرب شخصيته وفق المنهج، وهذا ما يحدث، خاصة للطلاب الذين يدرسون فى خارج بلدانهم الإسلامية، سواء فى الدول الشيوعية سابقا، أو فى الدولة الغربية العلمانية، حيث تشكل المناهج التعليمية مع الثقافة العامة شخصية الدارس وفق تلك المناهج؛ ولهذا كان ـ ومازال ـ المخلصون ينادون بتنقية وتنقيح المناهج الدراسية مما شابها من الثقافة المستوردة حتى ينمو الشباب بشخصية إسلامية سوية.

٤ ـ الثقافة المعرفية الأخرى:

نعنى بها الثقافة العامة المتنوعة، التى يكتسبها الفرد من مصادر عديدة مثل الكتب والمجلات والجرائد، وكذلك مشاهداته مثل السينما والتلفاز والإذاعة المسموعة...

وأخطر ما فى تلك الوسائل هو التلفاز والسينما والفيديو. فقد دلت

الأبحاث والدراسات التى أجريت على الأطفال حول تأثير التلفاز والسينما والفيديو ـ أن لها الأثر الفعال على شخصية الطفل، ولقد تفنن المخرجون فى هذه الأجهزة فى وسائل جذب المشاهد حيث الصور الملونة بألوان جذابة تخطف البصر وحركات الكاميرا لا تسمح للعقل بالتركيز أو التفكير حيث تتعاقب على بصره المشاهد العديدة السريعة، فلا تدع مجالا للنقد: بل تجذب عاطفته وتأسر لبه، وهذا مكمن الخطر حيث يسلب من المرء فكره وعقله الذى يزن به الصالح من الطالح.

ولقد دل كثير من الأبحاث على أن الأطفال يقلدون ما يشاهدون من عنف وعدوان، مثل القتل والضرب، وكذلك وسائل السرقة وطرائقها التى تعرض فى الأفلام بحجة علاجها، كما أن المناظر التى تصاحب ذلك مثل الحركات التى يفعلها أولئك الممثلون لتزيل عنهم التوتر والقلق، مثل تناولهم الدخان بكثرة وشربهم الخمر واحتسائها بشراهة شديدة أو إدمانهم للمخدرات أو قيامهم بحركات هستيرية جنونية تدل على اضطراب الشخصية، يصاحب ذلك قلق وتوتر نفسى مستمر ـ كل ذلك يدخل فى مخيلة المشاهد ويختزنه فى بؤرة اللاشعور، حيث يخرج ويظهر عند مثير مشابه.

وإننا نرى بأعيننا أن الذين يشاهدون السينما أو التلفاز أو الفيديو وبه مسلسل يعرض قصة بعينها، يتأثرون بما يقوم به الممثل، فإذا بكى الممثل بكى المشاهد، وإذا شهق فعل ذلك المشاهد، وإذا غضب أو حزن أو أصابه اكتئاب من جراء موقف معين أصاب المشاهد نفس الشىء، وإذا بات حزينا ظل المشاهد ليلته فى أرق وحزن، ثم يصبح الناس يحكون تلك القصص بألم وحرقة لما حدث لها...

تلك مؤثرات قوية على الشخصية وأثرها يلمسه الجميع، وما لم يتدارك الأمر فإن الشخصية الإسلامية تكون فى خطر، خاصة بعد أن يطبق نظامَ

البث الإعلامى المباشر، حيث يدير المشاهد جهازه ليلتقط أى برنامج يريد ومن أى بلد كان لا حاجز ولا معترض، عندها سوف تدمر الخطوط الرئيسة للشخصية الإسلامية، لأ سمح الله.

ومن الخبراء الذين تحدثوا عن أثر تلك الوسائل على الشخصية وأنها سبب فى انحرافها. الدكتور (ستيفن بانا) الأستاذ بجامعة كولومبيا حيث قال: (إذا كان السجن هو جامعة الجريمة، فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية للانحراف)[1].

ويقول تقرير صدر عن (اليونسكو): (إن إدخال وسائل إعلام جديدة، وخاصة التلفزيون فى المجتمعات التقليدية، أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن)[2].

إذَنْ هذه الأجهزة والوسائل تستطيع تحوير الشخصية حسب ما يغلب عليها من معتقدات وثقافات وبيئات أو أقل ما تفعله اهتزاز الشخصية وأرجحتها، وهذا وحده خطر على الشخصية الإسلامية.

ثالثا: العوامل المناخية:

والعوامل المناخية ـ سواء أكانت من حيث التضاريس الطبيعية أو من حيث عوامل الطقس من حرارة وبرودة ـ تؤثر على الشخصية تأثيرا نفسيا.

وهى من هذه الجوانب، إما أن تكون أرضا جبلية وعرة، أو أن تكون أرضا سهلة منبسطة، وهذه وتلك إما أن تكون صحراوية قاحلة أو خصبة ندية ذات أمطار وفيرة.

---

(١) انظر: البث المباشر، ص ٥١ و ٦٥، د/ ناصر سليمان العمر ط ٢، نشر دار الوطن الرياض ـ السعودية (١٤١٢ هـ).

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

والشخص الذى يعيش فى بيئة ما يتأثر بأحوالها سلبا وإيجابا، تبعا لوسائل العيش عليها من حيث السهولة والصعوبة وطرق كسبه.

فسكان الأراضى الصحراوية القاحلة الجرداء نجدهم يكثرون من التجوال والترحال؛ طلبا لوسائل العيش مثل الماء والعشب لحيواناتهم، ويسود حياتهم الاجتماعية عدم الاستقرار، كما تقل العلاقات الاجتماعية والتواصل، ويقل التعليم، وتكاد وسائل الثقافة تنعدم بسبب عدم الاستقرار، وتكون الروابط فى تجمعات صغيرة جدا لا تتعدى أفراد الأسرة أو بعض الجيران الذين تكون مساكنهم فى العادة متناثرة ومتباعدة بعضها عن بعض.

والصحراء تكون شديدة الحرارة صيفا، شديدة البرودة شتاء، فشدة الحر المستمر فى الصيف وزمهرير الشتاء القارس ـ كل ذلك يجعل أهل البلاد فى معاناة دائمة، فهم فى الحر يقاسون ويعانون، وفى البرد يقاسون ويعانون، مما يقض مضجعهم ويقلل من نشاطهم، ومما يجعل مزاجهم حادا مضطربا لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال، فغليان الحر فى أدمغتهم يسبب غليان مزاجهم وشدة انزعاجهم، كما يجعل نقصا فى مواردهم نسبة لقلة الأمطار والرى فى الصحراء، مما يجعلهم فى شغل شاغل ولهاث مستمر...

وكذلك يفعل زمهرير الشتاء فهم يضطرون للبقاء فى منازلهم مدة أطول للتدفئة، وهذا يقلل دخلهم اليومى...[1].

يضاف إلى ذلك كله طبيعة الصحراء وجفافها وقساوتها وشدة العيش فيها التى تتطلب شدة فى المعاملة، وبالتالى يتلون مزاج الإنسان وتتقلب شخصيته ليتلاءم ذلك مع شدة وغلظة الصحراء وليتكيف معها وضعه كله جسديا ونفسيا..

(١) انظر: فن نشر الدعوة، ص ٢٦ / للمؤلف نشر دار العاصمة الرياض السعودية ط ١ (١٤٠٩هـ).

وهذا كله يؤثر فى علاقات الناس بعضهم ببعض مثلما يؤثر فى شخصياتهم.

وكذلك إذا كانت طبيعة البلد جبلية والناس يعيشون فى ربا الجبال الشواهق محصورين بين الحجارة الصم، فلا يتحصلون منها على قوتهم إلا بشق الأنفس، فإن زرعوا فعلى سفوحها ومنحدراتها فى مساحات ضيقة لا يكاد ما تنتجه يسد الرمق، فهم فى معاناة دائمة تصلبت أقدامهم من كثرة الصعود والنزول، العلائق بينهم منبتة، والروابط الاجتماعية تكاد تنحصر فى أقرب الأقربين، لصعوبة المواصلات فى شعاب الجبال ووديانها، فتتشكل الشخصية الجامدة كجمود جلمود الصخر المقطبة الجبين فى غضب ساكن هادئ هدوء الجبل الأشم.

فشخصية كهذه تحتاج إلى علاج خاص من الدعاة، علاج يحرك الجبل، ويدحرج الصخر حتى يفجره من داخله؛ ليتخلص من باطنه الذهب والجواهر والكنوز.

وإن أناساً تكونت نفوسهم وجبلت طبائعهم بمثل ذلك، لمحتاجون إلى داعية يتسربل بالحكمة، ويتمنطق بالحنكة والدربة؛ حتى يسوس تلك النفوس باللين وطول النفس؛ لكى يخرج منهم الشخصية الإسلامية ذات الخلق القويم.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يعامل العرب الذين بعث فيهم، وبيئتهم قريبة مما ذكرنا، كان يعاملهم بكل لطف وسهولة.

وعندما ذهب للطائف يدعو ثقيفا إلى الحق وليحموه ليبلغ عن ربه، لم يجد منهم إلا كل قسوة وشدة وفظاظة، بل وأغروا سفاءهم وعبيدهم فرموه بالحجارة وسفهوه... ومع ذلك لم ينتقم منهم ولم يحنق عليهم، بل عاملهم

بعكس ما وجد منهم، وعندما ناداه ملك الجبال للانتقام له رفض ذلك، راجيا الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ويحمل دعوته.

أما فى المناطق ذات المناخ المعتدل ـ حيث لا حر شديد ولا برد كذلك ـ فتجد الناس هادئى البال، مرتاحى الضمير، يزنون الأمور ويعالجونها بِتَرَوٍّ وَتَأَنٍّ وَتُؤَدَة، فتجدهم يميلون للنقاش الهادئ والحوار المنطقى والتفكير السليم. هذا فى غالب أحوالهم، وتكون الشخصية متزنة مرنة لا شطط ولا غلو، فى العموم، بالمقارنة مع أولئك المذكورين سابقا.

والخلاصة أن البيئة بكل ما فيها، من مناخ وعلاقات، تُحَوِّر وتغير فى الشخصية والأخلاق والسلوك، وتؤثر على الفطرة سلبا وإيجاباً؛ ولهذا قلنا: لابد للداعى من مراعاة ذلك وأخذه فى حسبانه عند ممارسته للدعوة للحكم على الناس، فالناس أبناء بيئاتهم تركَّب منها شخصياتهم، وتقوم على أساسها سلوكياتهم وتعاملهم مع غيرهم ومع بعضهم البعض.

رابعا: البيئة المهنية:

المهنة السائدة فى المجتمع تؤثر على شخصياته سلوكيا ونفسياً سواء على أصحاب المهن أنفسهم أو من يعيشون فى مجتمع تسوده أو تغلب عليه مهنة أو مهن بعينها، فمثلا:

البيئة التى تسودها الصناعة ـ سواء أكانت صناعات ثقيلة أم خفيفة ـ نجد الشخصية فيها لها خصائصها وسماتها التى تميزها عن غيرها من المجتمعات، وغالبا ما تكون المجتمعات الصناعية ذات ثراء وترف فى العيش، وتكثر به المشاكل الناجمة عن الصناعة ومشاكل الترف المادى، كما هو حادث فى المجتمعات الغربية الحالية، حيث تتسم الشخصية فيه بالتفكك الأسرى والتفسخ الخلقى وانحلال عُرَا الروابط الاجتماعية عامة.

أما فى المجتمع الزراعى، فنجد الشخصية غير تلك؛ حيث تميل إلى الهدوء والطمأنينة والتجمع التعاونى للعمل وللأنس، وللخضرة أثر فى تكوين المزاج والعاطفة.

فإذا نزلنا إلى المجتمع الرعوى تقابلنا الشخصية التى تتسم بعدم الاستقرار؛ حيث الناس ينتقلون مع المرعى حيثما وجد، فسمات الشخصية هنا هى السمات الفردية الاستقلالية التى تحب التنقل والترحال، قليلة الحظ من التعليم والثقافة، ولكن مع ذلك لا نلاحظ عليهم القلق والاضطراب الذى نجده فى البيئة الصناعية، غير أنها ـ كما قلنا ـ هى شخصية آحادية خلوية ربما كان فيها شىء من الجفاف والجفاء والغلظة فى المعاملة، وهذا يرجع كثيرا إلى الطبيعة المناخية آنفة الذكر من حيث الخصوبة والتصحر، وكذا من حيث التضاريس: سهولها وجبالها.

المبحث الثاني
تنوع الشخصية

لم يخلق الله الناس سواء، بل جعلهم أخلاطا وأنواعا مختلفة، وكل ميسر لما خلق له:

فمن الناس من تجده يخالط الناس ويخالطونه، ولا يجد أدنى حرج فى الدخول مع أية فئة منهم، وآخر عكسه تماما، يحب الانفراد بقدر ما يستطيع، ويقلل من اختلاطه بالناس ما استطاع، ولا يتواصل معهم إلا بقدر الحاجة الملحة.

كما نجد آخر همه الأكبر من الناس أن يقودهم لما يرى أنه حق وخير، ويفضل أن يتصدر رأيه آراء الآخرين...

وإن الداعى الذى يحب للناس كل خير، يود أن يعرف كل تلك الشخصيات وأحوالها؛ حتى يستطيع أن يوجهها لما يفيدها فى دنياها وأخراها؛ ولهذا سوف نحاول أن نبحث باختصار فى تنوع الشخصية الإنسانية وفق ما ذكرنا من الأنواع الثلاثة؛ لنقف - بقدر المستطاع - على الخصائص المميزة لكل شخصية.

المطلب الأول: سمات الشخصية الفردية:

الصفة الآحادية الانغزالية ليست من صفات الحيوان، فضلا عن الإنسان، هكذا حكمة الله فى خلقه أن خلق كونه فى تزواج وتعاون، من الجماد إلى المتحرك، الحجارة والحصى والتراب... تتجاور وتتعاضد، ويسند بعضها بعضا، ولولا تجاور ذرات التربة وتكاتف وتساند حبيباتها، لما تمكن الإنسان من الحياة على ظهرها... ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ...﴾[1]، هى سنة الله فى خلقه.

ولهذا فإن كلامنا عن الشخصية الآحادية إنما هو كلام نسبى فى حدود المعقول الممكن من تلك العزلة، وفى ضوء هذا المفهوم نعالج الشخصية الانفرادية، مستصحبين المقولة الشهيرة: الإنسان مدنى بطبعه، والتمدن يعنى التوطن، والتوطن يعنى نوعا من أنواع التجمع والأنس مع الآخرين...

ولكن مع ذلك كله نلاحظ فى حياتنا الاجتماعية أناسا يجنحون إلى الانفراد ولو فى حدود، ولكنه واقع على كل حال، فهل لذلك من أسباب؟ وهل من سمات محددة لمثل تلك الشخصية؟ وهل من علاج؟ وقبل ذلك هل من مضار تنجم عن الانفراد أو من محاسن؟

من العادات أن ترتبط الظواهر بمسبباتها، حيث لا يمكن لأى شىء أن ينشأ من دون سبب، سواء عرف هذا السبب أم لم يعرف، وهذه سنة الله فى كونه، والشخص ـ كما هو معروف ـ أول ما نشأ وجد أمامه أسرته، سواء كبرت أم صغرت[2]، وكما هو معلوم فإن للأسرة أثرا فى بناء الشخصية الاجتماعية أو الانعزالية، فإذا كانت علاقات الأسرة مع الجيران والأهل قوية والصلات طيبة وودية، فإن ذلك يؤثر على شخصية الطفل ويكون اجتماعيا، والعكس صحيح إذا كانت علاقة الأسرة بالآخرين فاترة أو فى حدود قليلة فلربما أثر ذلك فى شخصية بعض أفرادها وناشئتها، فيأتى

(١) سورة الذاريات ـ من الآية (٤٩).

(٢) انظر: علم النفس، ص ٣٦٧، د/ عبدالعزيز القوصى.

أحدهم يحب الانفراد، وأنا أعرف شخصا كان ينعزل بداره، وينأى بها عن الناس مبتعدا بثروته الحيوانية عنهم، فنشأ بعض أفراد عائلته بنفس الطريقة، وأصبحت دورهم تبتعد عن دور الآخرين، حتى إذا أراد أحد أن يقترب من جوارهم رفضوا ذلك.

إذن العادة والتنشئة لها دور فى تكوين الشخصية بالانعزال وعدمه.

ولعل من الأسباب فى ذلك البيئة الكبرى ومدى قيامها على العلاقات بين أفراد مجتمعها، فإذا كانت العلاقات الاجتماعية فى البيئة تقوم على التواصل والتراحم والتعاون كما هو فى البيئات الإسلامية ـ فإن الشخصية فى الغالب تكون مقتربة من الآخرين، أما إذا كان العكس، كما هو الحال فى البلاد الغربية أو غير الإسلامية عامة، فإن الأفراد ينشئون على حياة الانفراد والاعتزال، فالغربيون تجدهم فى البيت الواحد والأسرة الواحدة ـ ولو كانت صغيرة ـ يأكلون فرادى، كل واحد بصحفته أمامه، على انفراد، وكذا فى وسائل كسب العيش فإن من لا يعمل لا يعيش حتى الزوجة لابد لها أن تعمل لتؤمِّن قوتها، والعجوز لايجد من أبنائه من يقوم على رعايته ومآله دور العجزة. . . وهكذا كل إنسان يعيش بنفسه لنفسه، حتى إن كثيرين منهم يموتون فى مساكنهم ولا يعرفهم أحد حتىَ تخرج رائحة النتن!! وهذا خروج عن الفطرة التى تميل إلى الحياة الاجتماعية.

وهناك بعض الأسباب ترجع إلى بعض المشاكل التى يصادفها المرء فى حياته، فتؤدى به إلى اعتزال حياة الاجتماع والميل إلى الانفراد، ومثل هذه الحوادث التى تصادف الإنسان لا يمكن حصرها أو إعطاء نموذج لها؛ لأنها غير محددة ولا معروفة بالتعيين مع الإيمان بوجودها ووقوعها، فتؤدى بالإنسان إلى الانكماش والانطواء على نفسه.

والبعض يرى أن للعامل الوراثى أثره فى ذلك[1]، ولكن هذا أمر نستبعد القطع به وإن بقى الاحتمال.

بعض ملامح الشخصية الانفرادية:

لا يمكن حصر تلك الصفات أو السمات أو القطع بها على وجه جازم، ولكنها قرائن استنتاجية تقوم على الملاحظة والتتبع، وبعض الباحثين يسمون الشخصية الميالة للانفراد والعزلة، بالنمط الانطوائى[2] من الشخصية، أو الشخصية الانطوائية، ويذكرون لها بعض الصفات والملامح مثل:

١ ـ الحساسية المفرطة تجاه القضايا الاجتماعية والانفعال السريع مع الأحداث وعدم التثبت.

٢ ـ الالتفاف حول الذات والانكفاء عليها والتمحور حولها، بحيث يسارع هذا النوع لقضاء حاجاته أولاً أو لا يعير اهتماما لقضايا الآخرين بقدر حاجاته هو.

٣ ـ النظرة التشاؤمية غير الموضوعية للعالم من حوله، فلا يرى إلا نذر الشر والخطر والمستقبل القاتم المظلم.

٤ ـ كثير الاعتزاز بنفسه دائم الحديث عنها والتأمل الذاتى ورؤية الناس من خلال ذاته فقط.

٥ ـ صعب الاندماج مع الآخرين.

٦ ـ قليل المخالطة قليل الأصدقاء، كثير التنقل من شخص لآخر، يرتابه الشك الكثير متردد فى قضاء حاجاته هياب، وربما كان كتوما لا يفصح عما فى كنانته قليل التعاون.

---

(١) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٣٠٣، د/ انتصار يونس.

(٢) انظر: أصول علم النفس، ص ٤٠٩، د/ أحمد عزت راجح.

وقد دمجنا بعض الصفات فى بعضها لتقاربها وتشابهها، وهذه الأمور المذكورة لتحديد الشخصية الفردية ليست نهائية، وليس بالضرورى أن تتوافر كلها لتحدد الشخصية، بل يصدق ذلك ببعضها، كما أن تحديد شخصية ما بأنها آحادية ليس كله نسخة واحدة فى كل الأشخاص بل الأمر يتفاوت من شخص لآخر.

وما من شك أن الشخصية الانعزالية تضر نفسها، وتضر المجتمع، ذلك لانقطاع التعاون بين الناس ومنع الفرد من خير المجتمع وخبرته، ومنع نفسه من فوائد الاختلاط بالمجتمع، فالعلم والحكمة والتعاون والعادات الحسنة وتبادل الخبرات ومعرفة الخير والشر... كلها لا تأتى إلا عن طريق المخالطة للناس، خاصة الخيرين منهم.

العلاج:

لم يدع الإسلام شيئا إلا وضع له علاجا، وهذه ميزة انفرد بها عن سواه من النظم والقوانين الآخرى، ومدارس علم النفس لم تعالج الحالة التى نحن بصددها، إلا إذا أصبحت حالة مرضية، فعندئذ تحاول علاجها، الذى لم ينجح إلا قليلا؛ لأنه علاج بدنى حسى، ثم إنه علاج بعد وقوع المرض، لكن الإسلام يضع العلاج قبل حدوث المرض، حيث يكون العلاج وقائيا، حتى إذا حدث المرض كان خفيفا، كما أنه علاج مزدوج، لتناوله النفس والجسد معا، مع تركيزه على النفس؛ لأنها أساس الجسد وهو تابع لها.

ولعلاج مثل حالة الشخصية الفردية، فقد رغب الإسلام فى الجماعة، وحث على التعاون والتعاضد، ونهى عن العزلة والعمل الفردى، كما فعل ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، عمليا وحث عليه، وحبب للإنسان أن يأكل فى جماعة، وأن يمشى فى جماعة، وأن يضع يده فى يدهم:

﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ... ﴾[1].

ودعا للوحدة والاتحاد، ونهى عن التفرق كيفما كان:

(الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب)[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[3].

(فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية)[4].

فإذا رغب الإنسان فى الاجتماع بمثل ذلك واتضحت له فوائده، وفى الجانب المقابل عرف مضار الاعتزال ـ تجنب العزلة، وحَسُنَتْ حاله، ورجع إلى وضع الناس الطبيعيين.

وعلى الداعى أن يحاول علاج هذا النوع من الشخصيات بمثل تلك الطرق وألا يدخر جهدا فى كل وسيلة أو أسلوب يمكنه من تحسين حالته وضمه إلى المجتمع، وأن يكرر معه المحاولة تلو الأخرى ولا ييأس من روح الله.

وأن يقدم له من الأعمال المحبب إليه، ويجعله على رأسه وتحت مسئوليته المباشرة؛ لأن ذلك يُشعره بقيمته، ويُعيد له شخصيته الاعتبارية، ويحاول في

---

(١) سورة المائدة ـ من الآية (٢).

(٢) رواه الترمذى فى كتاب الجهاد باب (٤) ٤/ ١٦٥، وأبو داود كتاب الجهاد، ٣/ ٣٦ والمسند للإمام أحمد ٢/ ١٨٦.

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الفتن باب (٧) ما جاء فى لزوم الجماعة (٢١٦٥) ٤/ ٤٠٤، والمسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٤٦.

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة باب التشديد فى ترك الجماعة رقم (٥٤٧) ١/ ١٥٠ والإمام أحمد فى مسنده، ٥/ ١٩٦.

علاجه التركيز علي أكثر الخصال التى تسبب له الاعتزال، فيحاول إزالتها بالأسلوب الحسن والطريقة المثلى، فأهم شيء هو أن يفهم الداعى الشخصية، ويفهم مرادها، فإن فعل ذلك سهل عليه العلاج، وكان علاجه ذا فائدة وصادفه النجاح.

المطلب الثانى: الشخصية الجماهيرية:

سمات هذه الشخصية تختلف عن سابقتها اختلافا بينا، حيث يمكننا أن نأخذ صفات الشخصية الأولى ونعكسها فنحصل على صفات الشخصية الجماهيرية... وصفوة القول: أن هذا الشخص نجده منفتحاً على الناس، يحب الجلوس إليهم والتخاطب معهم، وهو منبسط ومتبشر يفضل العمل الجماعى والاختلاط بالناس، وهو واقعى فى نظرته وتفكيره، غير تشاؤمى النظرة، ولا آحادى التفكير، كثير الاستشارة لغيره، متعاون، ليس بأنانى ذاتى، بل تفكيره وعقليته تعمل فى خضم الجماهير، ولا يميل إلى التفكير الفردى.

ومثل هذه الشخصية فى الغالب تكون محببة إلى الناس؛ لأن الناس ميالون إلى من يتعاطف معهم ومن يشعر بشعورهم، وعلى الداعى أن يعرف ما تصلح له هذه الشخصية من عمل، فيلمه له، وأفضل الأعمال له ما كان له صلة بالجمهور، وما لا يحتاج إلى قرارات حاسمة وصارمة؛ لأن لهذا الشخص عقلية جماهيرية، والعقل الجماهيرى سريع التأثر بغيره، ويصلح للعمل الجماهيرى والتحمسى العاطفى الذى يراد منه حشد الناس حول فكرة معينة أو للقيام بعمل جماعى كبير يحتاج إلى حشد الناس وتجميعهم، ولا يصلح مثل هذا أن يوضع فى عمل على انفراد؛ لأن شخصيته لم تتهيأ لذلك ولا تتقبل مثل هذا العمل، بل سيفشل فيه، وهذا الشخص لا يصلح ـ كما قلنا ـ للقيادة؛ ذلك لأنه شخصية استهوائية، أى ميالة للاستهواء، حيث نجده يتأثر برأى غيره سريعا ويتقبله دون تكليف نفسه عناء فحصه إن كان مناسبا أم

لا، فقد تدخل عليه كثير من الآراء والأفكار الضارة أو غير المناسبة فى هذا المكان. . .

المطلب الثالث: الشخصية القيادية:

من الصعب ضبط ملامح محددة وثابتة للشخصية القائدة، وإن حاولت بعض مدارس علم النفس التماس ذلك، ولكنها تظل فى طور الفرضيات والنظريات الاجتماعية؛ لأن الواقع لا يسمح لنا بأن نجزم بتلك الصفات الثابتة، حيث نرى تنوعا كبيرا فى تكوين الشخصيات القيادية.

فبعض النظريات ركزت على الصفات الشخصية للقائد، وجعلتها هى الأساس، وبنت عليها نظرياتها حول صفات القائد[1].

والبعض الآخر نظر إلى نوع العمل القيادى الذى يقوم به القائد، وبنوا عليه دراساتهم حول الشخصية القيادية.

وبعض أصحاب نظريات علم النفس، ركز على دراسة شخصية القائد باعتبار نوعية الجماعة المقودة.

والبعض الآخر قال بصفات ومميزات وراثية وجسدية وعقلية ينالها القائد من أسلافه، تؤهله للقيادة.

ولكن لعل النظرة السليمة هى القول بالمزج بين تلك الاستنتاجات كلها؛ حيث لا مجال لترجيح واحدة على الأخريات؛ لأننا لا يمكن أن نهمل الاستعداد الفطرى الجبلى ولا الموهبة التى تصقلها التجارب والممارسة والتدرب منذ الصغر على القيادة، هذا كله مع المؤهل الثقافى التعليمى والبيئى وكذا التنشئة الأسرية لها مكانتها فى تكوين الشخصية القيادية، كما أن من كان آباؤه المباشرين أو غير المباشرين من ذوى التأهيل القيادى، فإنه

(١) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٢٣٥ وما بعدها، د/ انتصار يونس.

ربما حاول أن يأخذ بزمام المبادرة؛ لكى يكون هو زعيما أيضا، سواء نجح أم لا.

كما أن لطبيعة العمل القيادى ولنوعية الجماعة المقودة أثراً فى تكوين شخصية القائد ونوع قيادته.

ولقد ذُكِرَتْ صفات عديدة للقائد، نجمل منها:

أن تكون شخصية متميزة عن الآخرين، وأن تكون لديه القدرة الى التخطيط والاستيعاب لمشكلات الجماعة المقودة، وأن يمثل الزعيم جماعته أو أمته خير تمثيل فى كل شئونها، وأن تكون مصلحة الجماعة أو الأمة فوق مصلحته الشخصية، وأن يكون قوى الإرادة، نافذ العزيمة[1].

إلى غير ذلك من الصفات القيادية الفذة التى يبعد أن تتوافر كلها فى بشر خلا الأنبياء.

أنواع القيادة:

يمكن أن نجمل أنواع القيادة وريادة المجتمعات التى تدل على شخصية القائد فى ثلاثة أنواع هى:

أولا: أنواع الزعامة من ناحية خصائص الزعيم وسبب اختياره:

وهذه تتمثل فى النقاط التالية:

١ ـ القائد الذى يُختار ويُنتخب بواسطة الجمهور انتخاباً حُرّاً مباشرا، وهذا النوع من القيادات ربما كان أفضلها، خاصة إذا كان الذين انتخبوه من ذوى الكفاية والعلم والنزاهة؛ وذلك لأننا نفترض أنهم ما اختاروه إلا لما رأوا فيه من خلال صفات حميدة وأهلية لم تتوافر كلها فى غيره، وراموا فيه

(١) انظر: علم النفس، أسسه وتطبيقاته التربوية، ص ٣٨٠، د/ عبدالعزيز القوصى.

الصفات التى تؤهله لقيادتهم من الكفاءة والمقدرة العقلية والعلمية والأمانة والشرف والحرص على مصالح الناس والتفانى فى خدمتهم، وهذه جملة الصفات التى يرغب الناس فيها.

والمثال الواقعى على ذلك اختيار قريش ورضاهم للرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما وقع عليه التحكيم بأن يحكم بينهم فى شأن رفع الحجر الأسود فى الكعبة عندما جددوا بناءها، فلقد ارتاحوا جميعا عندما وقع الاختيار عليه، وقالوا مجمعين: هذا الأمين رضينا به[1].

٢ ـ النوع الثانى من أنواع القيادة بحسب خصائصه القيادية، ذلك النوع الذى يأتى للقيادة عن طريقه الخاص، وأعنى به، من يقود الناس رغم أنوفهم، مثل أصحاب الانقلابات العسكرية، وهؤلاء يعتبرون من أقل القواد نفعا للناس، ولا يعنى هذا أنه لا خير فيهم جملة، ولكننا نتحدث عن العموم، وربما كانوا أقل القواد كفاءة وخبرة؛ ولهذا نجد استمرارهم فى القيادة لا يطول بالمقارنة مع غيرهم، إلا من ظهر منهم صلاحه لها وإصلاحه للمجتمع، وهذا الحكم هو فى غير القائد المسلم الذى لا يحكم بهواه بل يحكم المقودين بكتاب الله وسنة نبيهم، وهذا ـ كيفما كان نوعه ومجيئه للحكم ـ أهل لذلك؛ والسبب أنه لا يقود الجماهير حسب هواه، بل بقيادة الإسلام لهم، وهى بداهة أفضل قيادة.

٣ ـ القائد بالوراثة، وهذا النوع من القياديين، لا نستطيع أن نحكم عليه حكما عاما نسوقه كقانون، لصعوبة إمكان ضبطه؛ لأنه ربما توافرت فيه كل الصفات الحميدة للقيادة إن كان رجلا صالحا، وربما انعدمت تماما، وربما كان وسطا؛ ولهذا فإن الحكم عليه يكون فرديا عند المعاينة؛ لأن الملوك غالبا ما يعتنون بتربية أبنائهم وتأهيلهم وإعدادهم لتحمل القيادة من بعدهم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ١٤٢.

٤ ـ ربما كان القائد أتى إلى القيادة بحسب السلم الوظيفى والترقى المتدرج، وهذا النوع من حيث الأهلية ربما كان مؤهلا بحسب خبرته القديمة، أما من حيث الصلاح فأمره توقيفى حسب الشخص وتوجهاته.

٥ ـ بحكم السن، توجد بعض القيادات تتولى أمر القيادة بحسب العمر والسن، حيث تكون عادة الجماعة المقودة أن تولى أكبرها سنا، وهذا مثل سابقه ربما يكون صالحا أو غير صالح، وربما يكون كفئا أو غير كفء، والتجربة وحدها هى التى تحكم عليه، وكذا تقبل الجماهير له بعد توليه.

وهناك نوعيات أخرى من الزعامات، مثل توليه بحكم الثراء أو بحكم المكانة الاجتماعية. وكلها لا حكم عليها إلا بعد تجربتها.

ثانيا: القيادة من حيث نوعية الجمهور:

لنوعية الجمهور أثر بالغ فى نوعية الشخصية القيادية؛ ذلك لأن الذى يقود أناسا من ذوى العلم والكفاءة، ليس مثل الذى يقود مجموعة من العوام، كما أن الذى يقود أمة ليس مثل الذى يرأس فريقا صغيرا أو مجموعة عمل محدودة، ونستطيع أن نقول: إن نوع القيادة يعرف من خلال جمهوره؛ لأن الجمهور يؤثر فى القيادة مثلما تؤثر هى فيه، فهو منهم وإليهم.

ثالثا: نوع الشخصية القيادية حسب نوع العمل:

لطبيعة العمل الذى يؤديه القائد والدور المنوط به فى الجماعة أو الجمهور، أثر بالغ على شخصيته.

ولهذا نجد أن أهمية القيادة تعلو وتهبط بحسب مهام القائد الموكولة إليه، فكلما عظم دور عمله سمت شخصيته وعلا شأنه وارتفع فى المجد سهمه والعكس بالعكس.

إذن نوع العمل وطبيعته لهما دخل بارز فى الحكم على الشخصية، أو كما قال المتنبى:

على قدر أهـل العزم تأتى العزائم وتأتى عـلى قـدر الـكرام المـكارم

وتعظم فى عـين الصغيـر صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم[1]

(١) انظر ـ ديوان أبى الطيب المتنبى ص ١٣٨، نشر دار الكتب ا لعلمية ـ بيروت.

المبحث الثالث
شخصية الداعي

إن الحديث عن شخصية الداعى لا يخرج ـ فى عمومه ـ عن الشخصية الإنسانية فى عمومها، ولكن لتميزها وتميز العمل الذى تقوم به الشخصية الدعوية ـ أفردنا لها الحديث، مع الأخذ فى الاعتبار عدم تكرار ما ذكرناه عن عموم الشخصية مما هو محل الاشتراك البشرى، حيث إن الخصائص البشرية العامة مشتركة؛ ولهذا فكلما التقى الحديث عن شخصية الداعى مع الشخصية العمومية، سوف نحيل على ما سبق كيلا نكرر أنفسنا، فالوقت يضيق عن ذلك ولا يتسع له.

المطلب الأول: عوامل تكوين الشخصية الدعوية وما يؤثر فيها:

انطلاقا مما ذكرناه سابقا ـ من أننا لن نكرر الحديث الذى تقدم، إذا لم تكن ثمة زيادة ـ فإننا نحيل القارئ على ما سبق ذكره باستفاضة حول عوامل تكوين الشخصية فى الفصل الثانى[1]؛ لأن العوامل المؤثرة فى تكوين الشخصية مشتركة ومتطابقة، والداعى هو فى الأساس شخص ينتمى إلى الجنس البشرى، ويؤثر فيه ما يؤثر فيهم، ويجرى عليه ما يجرى عليهم. هذا

(١) انظر: صفحة: ٩٨.

كله فى الأساس البنيوى المشترك، وما خلا ذلك من الخصائص المكتسبة، فسوف نعالجه على انفراد فيما يلى.

المطلب الثاني: عوامل بناء وتنمية الشخصية الدعوية:

الشخصية الدعوية، إن تركت لعوامل التكوين العامة المذكورة سابقا، فإنها سوف تتعثر كثيرا، ولن تؤتى الثمار المرجوة منها؛ ولهذا لابد أن تفرد لها عناية خاصة ورعاية شاملة من كل الجهات التى تقوم على أمرها وتشرف على شئونها، ابتداء من الأسرة، وانتهاء بأعلى جهة من تلك الجهات؛ حتى تكون ناهضة بالمهام التى تقوم بها، وهى الدعوة إلى الله، وتكون على مستوى المهمة المنوطة بها، ولقد ذهب الوقت الذى تعطى فيه الدعوة البقايا والفتات والفضلات، وليعلم الجميع أن الله، تعالى، اصطفى لها أفضل البشر وتعهدهم بالرعاية والصياغة والتنمية الشاملة منذ الصغر حتى غدوا أهلا لما يلقى عليهم من إصلاح حال البشرية، وهذا ما صرح به خاتمهم وأفضلهم محمد، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)[1].

ومن أهم ما تُبنى به الشخصية الدعوية، أن تكون قوية مؤثرة ذات إرادة وعزيمة ومضاء؛ حتى تكون شخصية قيادية، وهذا المفهوم الأخير هو حجر الزاوية؛ حيث إن الداعية لابد أن تكون فيه الصفة القيادية ما استطاع ذلك، وهذا كله يمكن أن يكتسب بالمران والدربة.

إن من أكثر ما يقوى الشخصية وينمى فيها العزة والعزم، كسر الحاجز

(١) انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلونى ١/ ٧٢، والفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة، ص ٣٢٧، وتذكرة الموضوعات للفتّنى، ص ٨٧، برقم ٣١٨٩٥. وكنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال. وذكره ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة، ص ٧٢. والحديث ضعيف حسب سنده، ولكن معناه صحيح.

النفسى الذى يفرضه العدو القوى؛ ليحبط به نفسية الداعى، ويجعل شخصيته مهزوزة وخوّارة لا تقدم على قرار ناجز وفاعل ومؤثر، وهو أشبه بما يسمى بالحرب النفسية فى أيام الحروب، لاسيما فى عصرنا الحاضر، عصر الإعلام الذى يمارس ذلك من أوسع أبوابه، خاصة الإعلام المعادى للإسلام؛ حيث يملك قوة الانتشار وقوة الإسماع بما لديه من وسائل تقنية تعينه على ذلك، فقوة شخصية الداعى تعينه على نقل فكرته إلى غيره وتوصيلها بصورة جذابة وقوية وذات تأثير، ولكن قبل ذلك لابد أن يمتلك هو ذلك؛ حتى يستطيع نقله لغيره، بأن تغرس فيه هذه القوة وتنمى تنمية مستديمة حتى يشعر بها وبعزتها.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتعهد أصحابه بذلك يُسَدِّد ويتمم: كلما رأى خللا سده، وكلما رأى ضعفا قواه، حتى غدوا أقوى ما تكون الشخصية وأثبت، فحملوا الدعوة شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، وطافوا بها أرجاء المعمورة لا يركعون إلا لله، ولا يخافون إلا من الله، ولا يذلون إلا لله، ولا يرهبون إلا الله... ولنأخذ نماذج من ذلك التعهد الإيمائى لتقوية الشخصية:

كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد الحادثة التى عاتبه فيها الله، تعالى، مع ابن أم مكتوم، عندما جاءه ومعه أكابر قريش يدعوهم إلى الله، كان بعد ذلك العتاب التربوى من الله لرسوله، يقرِّب ابن أم مكتوم إليه ويدينه من مجالسه؛ لأن الله أراد ألا تكون شخصية المؤمن ضعيفة أمام الأعداء وألا يكون المسلم فى استكانة وامتهان، وعدوه فى عزة ومنعة، وقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم يصرح ويعلن أمام ابن أم مكتوم: (مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى...)[1]؛ لكى يرفع من معنوياته، ويقوى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٩/٢١٣.

شخصيته التى ربما يكون مسها شىء بسبب انصرافه عنه، لذلك العمل الجماعى الدعوى، الذى لم يرد الله أن يكون على حساب الشخصية الإسلامية مهما كبر حجمه؛ لأن قوتها تجلب الكثير الكثير للدعوة، فتعاهده الرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ به أن استخلفه مرتين على المدينة، إماما ومصليا بالناس.

ولقد زوج النبى، صلى الله عليه وسلم، بنت خالته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، وكان هذا أمرا عظيما عند العرب أن يتزوج مولى من سيدة من بنات السادة، ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أراد كسر هذا الحاجز الجدارى الجاهلى؛ تقوية للشخصية الإسلامية الدعوية.

بل قد يرى شخصية صغيرة فى السن، ولكن يروم فيها كبر المعنى ورجاحة العقل، فيعمل على تنميتها ورعايتها حتى تغدو ذات شأن، وهذا ما فعله مع أسامة بن زيد عندما ولاه قيادة الجيش لفتح بلاد الروم، مع وجود كبار الصحابة مثل أبى بكر وعمر، وما أدراك ما هما؟

وعندما تململ بعض الناس من إمارته؛ نظرا لصغر سنه الذى ربما جعله أقل كفاءة فى نظرهم لقيادة جيش يحارب واحدة من القوى الكبرى فى ذاك الوقت ـ قال لهم الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(إن تطعنوا فى إمارته، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه قبلُ، وَايْمُ الله إِنْ كان لَخليقاً للإمارة، وإِنْ كان لَمن أحب الناس إلىَّ، وإن هذا لَمن أحب الناس إلىَّ بعده)[1].

ولقد فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك أمامه ليقوى شخصيته

(١) متفق عليه: البخارى ـ كتاب فضائل الصحابة، باب (١٧) مناقب زيد بن حارثة، حديث رقم (٣٧٣٠) الفتح ٧/ ٨٦، ومسلم كتاب فضائل الصحابة (٦٣ ـ ٦٤)، والمسند ٢/ ٢٠، والترمذى كتاب المناقب باب (٤٠) مناقب زيد بن حارثة، حديث رقم (٣٨١٦) ٥/ ٦٣٥.

ويعتد بإسلامه، وليعرف الآخرون أن الشخصية الإسلامية لا تقاس بالأعمار، ولا بالأجسام، ولا بالأحجام، بل بقوتها الإسلامية وعزتها بإيمانها وإسلامها، وهذا ما ظهر فى شخصية ربعى بن عامر عندما قال لقائد الروم، وهامته تعلو فى الثريا:

(الله ابتعثنا لنخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[1].

ومنهج تنمية الشخصية هو الذى ربى عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، أصحابه ـ كما قلت ـ وتعاهدهم به، فهاهو عندما هفا أبو ذر الغفارى هفوة كانت مجرد زلة لسان عابرة، فى ساعة غضب، ،مُعَيِّراً رجلا بأمه، فغضب الرسول، صلى الله عليه وسلم، واشتد غضبه أن يذل مسلم مسلما، وأن يكسر مسلم شوكة أخيه فألقاها فى وجه أبى ذر دون أن يسمح للزمن أن يمر فتتغلغل فى أعماق النفس غائرة تاركة ندوبا قد لا تندمل بيسر، وقد تسرى للأجيال:

(يا أبا ذر، طف الصاع! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل...) ووبخه بزيادة قوله: (يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية!!)[2].

وسرعان ما غَلَتْ الكلمة النبوية فى دماغ أبى ذر، وضاقت بها نفسه، فأقسم على بلال ألا يدعه حتى يطأ برجله على خده الذى رمى به على الأرض!!

وبمثل هذا الدفع القوى تدفع الشخصية الإسلامية للقوة والمضاء الأَحَدِّ من

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٧/ ٣٩، نشر مكتبة المعارف بيروت.

(٢) البخارى، كتاب الإيمان، باب (٢٢) المعاصى من أمر الجاهلية، حديث رقم (٣٠) الفتح ١/ ٨٤ وأول الحديث رواه ابن المبارك فى البر والصلة.

شفرة الحسام المهند. وتمضى عجلة التاريخ ويتولى أبو بكر الخلافة، فكان أول عمل خارجى يقوم به هو إنفاذ بعثة أسامة واستكمال إمرته، ويخرج الخليفة مع القائد الشاب المصعَّد، وهو راكب والخليفة إلى جانبه يمشى، فيستحى الشاب القائد من ذلك، فيلح عليه بأن يركب، قائلا له: يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأَنْزِلَنَّ، ولكن الخليفة المربى يقسم قائلا: والله لاتنزل، ووالله لاأركب، وما عَلَىَّ أن أُغَبِّر قدمى فى سبيل الله ساعة؟[1].

المطلب الثالث: الاستقلال والتحرر الفكرى:

الداعى المسلم ما ينبغى له أن يكون إِمَّعَةً ينعق مع كل ناعق، ولا ذيلا يُجَرُّ فى كل اتجاه، بل هو شخصية قائمة بذاتها، متحررة كن كل تبعية بأى نوع كان.

هذه الاستقلالية موجودة ومتأصلة فى النظام الإسلامى، فهو أبدا لم يكن يوما من الأيام ضعيفا يحتاج إلى من يقويه ويسنده؛ لأن الله جعله خلاصة الأديان وثمرتها، مثلما جعله منهج كل الشعوب وكل العصور، إن دينا بهذه الميزة لا يمكن أن يحتاج إلى زيادة أو ترقيع.

وما أصاب المسلمين من تدن وانحطاط فببعدهم عن هذا المنهج الربانى، وتجافيهم عن خصائصه التى تَفَرَّدَ بها، فَقَصَوا عنه فافترستهم الذئاب: (وإنما يأكل الذئب القاصية)[2].

ولقد عاب الإسلام على الذيليين العالة على غيرهم فى الفكر والمنهج والأسلوب، وسخر منهم ومن أطروحاتهم القائلة:

﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[3].

---

(١) انظر: فى ظلال القرآن، ٦/ ٣٨٢٩.

(٢) سبق تخريجه، انظر ص ١٣٦، من هذا الكتاب.

(٣) سورة الزخرف ـ من الآية (٢٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1].

ولقد حرر الإسلام الشخصية الإسلامية من عقدة (الكبار) والتبعية لهم حذو القذة بالقذة، ولم يكبر لدى المسلم سوى الله، سبحانه، وهذا هو المنهج الإسلامى الذى جعله شعارا عباديا للمسلم فى الصلاة التى تكرر خمس مرات فى اليوم، يتكرر التكبير لله فى كل حركة منها من خفض ورفع، ولا توجد حركة فى الصلاة إلا وفيها تكبير لله، عز وجل، حتى يصل عدد التكبير للصلوات المفروضة فقط غير السنن والنوافل إلى أربع وتسعين تكبيرة، ويزداد العدد تصاعديا بعدد السنن الرواتب والنوافل.

ومن المعلوم أن للتكرار أثرا بالغا على الشخصية، فإذا كان التكرار لشىء محمود ومن الفضائل، فإنه يقوى الشخصية ويزيدها نصاعة وعزما، والعكس إن كان التكرار فى شىء ردىء، (فالإعلان الذى يتكرر فى أوقات مختلفة غير متباعدة نجده يترك أَثَراً قويا فى نفوس المشاهدين)[2]، ويظهر هذا الأثر جليا فى الإعلان الدعائى لترويج السلع التجارية والكتب والأفلام، حيث يقبل الناس على السؤال عن تلك المنتجات لشرائها أو تلك الأفلام لاقتنائها أو مشاهدتها فى مكان عرضها..

إذَنْ الشخصية الإسلامية الحقة لا تعرف التبعية أو الانهزامية النفسية التابعة لغيرها ولا تتعامل برد الفعل والتداعى الفكرى التراكمى والتعقيبات على هوامش الآخرين، بل هى ذات فكر مبدع مستقل وعقل متحرر من قيود الزمان والمكان ومنطلق من ظرفيتها ومحدوديتها.

---

(١) سورة البقرة ـ الآية (١٧٠).

(٢) انظر. علم النفس، أسسه وتطبيقاته التربوية، ص ١٧٤، د/ عبدالعزيز القوصى.

يقول، صلى الله عليه وسلم:

(لا يكون أحدكم إِمَّعَةً، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم)[1].

والشخصية الدعوية محررة من قيود التبعية النفسية التى تهزم النفس وتجعلها مستسلمة لغيرها، لاهثة وراء فكرة مزدردة لإنتاجه من غير فحص، ملقية كل ما يحصل لها من مشاكل وعقبات على الآخرين أصحاب الفكر الطاغى، وهذه العلة تظهر عند المتخلفين عن ركب الإيمان أصحاب الغلالة الرقيقة من الدين الممتطين صهوة جواد غيرهم ممن يسمونهم (بالكبار) الذين صغروا فى العين الإسلامية، وكبروا لدى الانهزاميين.

لقد أبعد الإسلام الشخصية الإسلامية من كل تبعية تخل بها، سواء أكانت تربوية تعليمية، أو ثقافية عامة؛ حتى تنمو الشخصية على استقلاليتها وتفردها بخصائصها المتميزة.

ولهذا عندما رأى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة نهاه قائلا:

(امتهوكون فيها يابن الخطاب، والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى). ونهى عن تقليد ومحاكاة اليهود والنصارى فى كثير من الأمور التى لها أثر فى اختلال الشخصية الإسلامية، مثل الألبسة الخاصة بديانتهم، والأكل بالشمال، والسلام بالتحية الخاصة بهم ذات الطقوس الدينية، وكل ما يخل بالمظهر الشكلى للمسلم؛ حتى لا تنطمس معالم الشخصية الإسلامية وتنمحى هويتها، وتذوب فى الأمم الأخرى.

---

(١) سنن الترمذى، كتاب البر، باب (٦٣).

ومن ملامح الشخصية الدعوية، القدرة على الجذب والاستمالة واستهواء الآخرين، ومن وسائله لذلك سعة اطلاعه وغزارة علمه، وخصوبة ذهنه، ودماثة خلقه ولين عريكته وأريحيته. ولقد كانت هذه الصفات وأكثر منها تتوافر فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وورثها عنه صحابته وكثير من الدعاة من بعده، وكانت تمر به مواقف كثيرة كان يتخلص منها بمثل تلك الخلال، من ذلك موقف بعض الأنصار معه بشأن تقسيم الغنائم عندما لم يبق منها شيء لهم، وكان أكثر من أخذ منها من المهاجرين، فخاف أن يؤثر ذلك على الأنصار، فيؤثر بدوره على مسيرة الدعوة وعلى منهج الإسلام القائم على التسوية بين الناس وعدم المحاباة والتفريق بسبب العصبية والقرابة أو الجوار أو المصالح المشتركة، كما يحدث فى الأنظمة غير الإسلامية، فتدارك الرسول، صلى الله عليه وسلم، الموقف وابتدرهم بحديثه النافذ إلى القلوب، المقنع للعقول، كما حدَّث به أبو سعيد الخدرى قائلا:

(اجتمع أناس من الأنصار، فقالوا: آثر علينا غيرنا!! فبلغ ذلك النبى، صلى الله عليه وسلم، فجمعهم ثم خطبهم، فقال: يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله؟! قالوا: صدق الله ورسوله: قال: ألا تجيبوننى؟! ألا تقولون: أتيتنا طريدا فآويناك!! وأتيتنا خائفا فأمناك؟! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبقران ـ يعنى البقر ـ وتذهبون برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتدخلونه بيوتكم؟ لو أن الناس سلكوا واديا أو شعبة وسلكتم واديا أو شعبة، سلكت واديكم وشعبكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، وإنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض)[1].

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٣/ ٥٧.

وبهذا الأسلوب الفذ استمالهم وجذبهم إليه راضين مسرورين. وهكذا ينبغى أن تكون شخصية الداعى، يدرس نفسيات المدعوين وسلوكهم ويعطيهم ما يصلح حالهم.

المبحث الرابع
أحوال الشخصية

الإنسان بشر مخلوق من تراب ومن نفخة روحانية صافية؛ ولهذا الازدواج فهو لا يثبت على وتيرة واحدة، بل أحواله دائمة التقلب والتحول، من وقت لآخر، ومن مكان لآخر، ومن طور إلى طور، ومن صحة إلى مرض، ومن ضعف إلى قوة، ومن تقلب فى الأخلاق والأمزجة... حسب ما يمر عليه من عوامل تؤثر فى ذلك كله.

ولهذا فقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو باستمرار ويقول:

(يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك)[1].

وكان يقول معللا ومفسرا ذلك التحول الذى أشرنا إليه:

(ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه)[2].

نجمل تلك الأحوال فى المطالب الآتية:

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤/ ١٨٢ وسنن الترمذى، كتاب الدعوات باب (٩٠) حديث (٣٥٢٢) ٥/ ٥٠٣.

(٢) نفس المرجعين السابقين بنفس الصفحات والأبواب والكتب.

المطلب الأول: عوامل تغيير الشخصية:

هناك أمور عديدة ـ ربما لا يستطيع باحث أن يحصيها ـ تؤثر على الشخصية وتجعلها تتغير من حال إلى حال، وهو أمر يلزم الداعى مراعاته لدى المدعوين؛ كى لا يأخذ الناس فى كل وقت ومكان بما كانوا عليه وبما ألفهم عليه، فلابد أن يلاحظ ما يطرأ على الناس من تغيير. وهذه بعض الملاحظات على عوامل تغيير الشخصية نلخصها فى النقاط التالية:

١ ـ عامل السن:

هذا العامل يمكن أن يلاحظه حتى الإنسان العادى؛ ذلك لأن الإنسان يتغير فيه كل شىء بحكم السن، فشخصية الصبى غير شخصية الشاب، وهذه تختلف عن شخصية الكهل التى هى بدورها تباين الشخص عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة، وتبعا لذلك يتغير السلوك العام بما فيه التعامل مع الناس، ومع النفس، حيث يتغير اللباس والمركب والتوجه العام وتركيب الجسم، طوله وعرضه... ويتبع ذلك النفس والروح والمزاج، ويختلف التفكير، والطموح، فتفكير الصبى وطموحاته غير تفكير الشاب وما بعد تلك السن...

والله، سبحانه، بين ذلك أفضل تبيين فى كتابه الذى حوى كل شىء عن الإنسان والكون، وهو خالق النفس وبارئها، حيث أشار إلى تلك التغيرات التى تطرأ على شخصية الإنسان من حين لآخر حتى يتوفاه الله، فى إجمال معجز مبين، فبعد أن ذكر أطوار خلقه فى بطه أمه، قال فيه عند خروجه.

﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا...﴾[1].

(١) سورة الحج ـ من الآية (٥).

ثم ذكر بعض تفاصيل تلك الأحوال فى تغير الشخصية فى آية أخرى حيث نص على فترة من فترات التغير العمرى لم تذكر صراحة فى الآية السابقة، وهكذا يفصل القرآن فى مكان ما يجمله فى مكان آخر؛ لتتكامل الصورة التركيبية للحدث فى ذهن القارئ؛ تقريبا لمفهوماتها له، وهذا من معجزات التكرار فى القرآن، حيث كل مكرر لابد له من فائدة وميزة، أدركنا ذلك أم لم ندركه. . .

يذكر الله، تعالى، أطوار خلق الإنسان منذ آدم وفى بطن أمه، ثم يقول عنه بعد الخروج إلى عالم الشهود:

﴿ ... ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ويشير القرآن فى تفصيل آخر للتغيرات التى تطرأ على الشخصية، ذاكرا لها من جانب آخر، وبألفاظ أخرى تتناول جانبا حيويا فيها وعنصرا فعالا لا تقوم الشخصية ولا تعرف إلا به، وهو جانب القوة والضعف فى الشخص، فيقول، تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[2].

٢ ـ التعليم والثقافة:

العامل التعليمى والثقافى من أهم العوامل التى تؤثر فى تغيير الشخصية، وكلما زادت ثقافة الإنسان عملت تلك الزيادة عملها فى تغيير الشخصية، بل

---

(١) سورة غافر ـ من الآية (٦٧).

(٢) سورة الروم ـ الآية (٥٤).

نوعية الثقافة وكميتها تغير الشخصية بكل مقوماتها السلوكية وتُحَدِّد معالمها البارزة، فأنت أول ما ترى الشخص من على بعد ومن خلال مظهره الخارجي تعرف إن كان متعلما أو عاميا، في الغالب، أما عندما يحادثك ويجالسك فإنك تستطيع أن تحكم عليه من منطقه إن كان عاميا أو متعلما، وإن طالت مجالستك أو مناقشتك له عرفت عنه أكثر من مجرد التعليم؛ لأنك حينئذ تحدد مدى ما يحمل من ثقافة ومعارف، علاوة على الشكل والهندام في عمومه.

والله، سبحانه، زود الإنسان بآلات ووسائل اكتساب المعارف، مما جعله مؤهلا لذلك، ولكنها تتدرج خطوة بخطوة مع نموه العضوي والجسدي، حتى إذا وصل إلى مراحل الصبا والشباب وما بعدها أصبح قادرا على التلقي الكامل، في الوقت الذي خرج فيه لهذا الوجود وهو لم يكن معه من شيء سوى امتلاكه لتلك الآلات، ومن العجيب المعجز أن هذه الأدوات توجد عند الحيوان، وتتشابه مع أدوات الإنسان في عمومها، خاصة عند صغره، ولكن الفارق المعجز هو أنها عند الإنسان تنمو نموا معرفيا، لا نموا عضويا فحسب، ولكنها عند الحيوان، من حيث النمو المعرفي نجدها تراوح مكانها مهما تقدمت سنه، فسبحان الله، الذي جعلها للإنسان مدركة وللحيوان مُصْمَتَةً مغلقة، ولهذه الميزة فقد امتن الله على الإنسان مذكرا إياه بفائدتها:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

فالتعليم والثقافة من ملامح تحديد الشخصية، فما على الدعاة إلا مراعاتها وملاحظتها للاستفادة منها عند تقديم الدعوة، حتى يحددوا لكل شخصية ما يناسبها.

(١) سورة النحل ـ الآية (٧٨).

٣ ـ المركز الاجتماعى أو السياسى:

تتغير شخصية الإنسان تبعا للمكانة التى ينالها فى المجتمع، فإذا كان فى بادئ الأمر من عامة الناس وجملتهم، ثم أصبح قائدا ورائدا فيهم، أو اعتلى منصبا سياسيا فإنه يتغير سلوكه كله تبعا لذلك الوضع الوظيفى الجديد، فقد يكون فى أيامه الأولى يأتى بعض الأفعال أو الأقوال، ولكن بعد توليه ذلك المنصب لا يسعه أن يفعل أو يقوم بذلك أو كان يرتاد أمكنة بعينها فلا يمكنه ارتيادها بعد المنصب، أو كانت له علاقات وارتباطات من قبل ربما تنقطع من بعد ذلك، وكذا يقال فى المسكن والمركب وطريقة المعيشة... الخ، وهذا تحول ظاهر بيّن فى الشخصية، بل ربما منعه ذلك من أمور ومصالح مفيدة كالتعليم أو الثقافة التى تتطلب الانتقال لمكان معين أو التلمذة والدراسة... ولهذا ورد عن عمر، رضى الله عنه: (تفقهوا قبل أن تسودوا)[1].

ومن هنا لزم الدعاة أخذ ذلك التحول فى الحسبان وإعداد العدة لما يناسبه وحاله الجديد؛ لأن دعوة هؤلاء ليست كدعوة غيرهم، ودعوة الخاصة تفارق دعوة العامة، والوسائل والأساليب المستعملة لهؤلاء قد تختلف عن تلك المستعملة لغيرهم[2]، كما أنه تبعا لتغير المكانة والوضع تتغير النفس، فتحتاج فى التعامل معها إلى ما يواكب ذلك التغير.

٤ ـ بعض الأحوال التى تطرأ على الشخص مثل:

انتقال الفرد من حالة عدم التدين إلى حالة التمسك بأسس الدين والاعتناء بآدابه والتخلق بأخلاقه ونهج سلوكه، فتتغير الشخصية هنا تغيرا أساسيا، كما أن العكس هو كذلك فى تغير الشخصية، أى الانتقال من حالة

---

(١) رواه الدارمى فى سننه فى المقدمة، باب، فى ذهاب العلم، ١/ ٧٩.

(٢) للتوسع فى دعوة الزعماء ووسائلها وأساليبها وفوائدها... انظر المنهج العلمى للدعوة للمؤلف ص ٢٩٠.

التمسك بتعاليم الدين إلى التحرر الكامل منها، حيث يتبع ذلك تغير فى سلوك الشخصية يلزم أخذه فى التعامل معه.

المطلب الثانى: طرق معرفة التغيُّر فى الشخصية:

يوجد كثير من الطرق التى يمكن عن طريقها أن نعرف تغير الشخصية، وإن كانت غير قاطعة كلها، ولكنها تصدق فى كثير من مضامينها؛ وذلك لأنها تعتمد على الملاحظة والتدقيق، وهذه وسائل تختلف باختلاف الباحثين، نذكر من تلك الطرق:

١ ـ يمكن أن نتعرف على تغير الشخصية من ملامح سلوكها الخارجى، مثل تغيير اللباس الذى كان يظهر به الشخص ويواظب عليه، وما دلالة هذا اللباس الجديد على سلوكه؟ وهل التغير إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ ولماذا غيّر من هذا إلى ذاك؟ وهل لضغوط عليه من الخارج أم باختياره المحض؟

وكذلك عن طريق تعامله مع الناس مقارنة بتعامله السابق والوسائل التى كان يستخدمها سابقا بالتى يستعملها فى الوقت الحاضر... كل هذه الظواهر السلوكية الخارجية تدلنا على مدى التغير الذى حدث للشخصية.

٢ ـ يمكننا أن نتعرف على تغير الشخصية عن طريق التقويم الفكرى للشخص وما حدث فى فكره من تغير، وذلك عن طريق فحص إنتاجه العلمى، مثل الكتب التى أصدرها حديثا واتجاهاته فى الكتابة والموضوعات التى يدور اهتمامه حولها، وكذلك كتاباته السيارة اليومية للمجلات والصحف، مع فحص نوعيتها مقارنة بما سبق له من كتابات مماثلة...

وكذلك إن كانت له مذكرات شخصية تشرح منهجه أو التغير الذى حدث له، فى أطوار حياته المختلفة.

٣ ـ وثمة وسيلة أخرى يمكن أن نستقى عن طريقها التعرف على التغير فى الشخصية، وذلك عن طريق متابعة وفحص ما يكتبه عنه الآخرون ونقدهم له وتقويمهم له... كل ذلك يمكن أن يكون طريقا لمعرفة تغير الشخصية.

ومع ذلك نقول بصعوبة التوغل فى الدراسة النفسية للشخص، وبالتالى لا يمكن القطع بتلك الوسائل، ولكنها مؤثرات قد تصدق على بعض الصور، ولا تصدق فى غيرها...

المطلب الثالث: ملامح الشخصية:

نعنى بملامح الشخصية هنا، تلك الظواهر والدلالات التى يمكن من خلالها التعرف على الشخصية من حيث صلاحها وعدمه، أو بمعنى آخر، التعرف على الشخصية السوية والأخرى المرضية المضطربة؛ لأن التعرف مهم جدا للدعاة فى التعامل مع الناس حسب أحوالهم ليمكنهم من الإفادة لهم بما يصلح أحوالهم فى الدنيا والآخرة، وهذا هو المقصد الأساسى للدعاة، ولنبدأ بالتعرف على بعض تلك الملامح بإيجاز فيما يلى:

أولا: الشخصية السوية:

المقصود بالشخصية السوية، تلك التى تنظر إلى ما حولها نظرة موضوعية معتدلة متفائلة، راضية بما قسمه الله لها، بعد السعى والاجتهاد المطلوب من البشر، وهى التى توازن بين ما لها وما عليها ولا يجرمنها بعد ذلك شنآن الناس من حولها، وهى التى تسعى لإصلاح ما أفسده الناس على بعضهم بعضا.

هذا فى مجملها، أما علماء النفس فإنهم لم يتفقوا على ماهيتها وانضباطها وتحديد مفهومها، وذلك حسب نظرة كل مدرسة من مدارس علم النفس[1]، وأعدلها يرى أن (السلوك السوى يختلف عن غير السوى بمقدار ما يحققه للفرد من توافق وتكيف، ويعينه على خفض وتحمل الإحباط. . .)[2]، ويرون أنه ليس هناك حدود فاصلة بين الشخصيتين، السوية وغير السوية، كما أن السلوك يرجع إلى أعراف المجتمعات، حيث يكون السلوك السوى فى بلد هو غير السوى فى بلد آخر. . . وهكذا تختلف المعايير عندهم، حيث لا ضابط يقاس به غير العادات والتقاليد!!

أما عندنا، معشر المسلمين، فإن معاييرنا منضبطة متزنة؛ وذلك لاتحاد المصدر الذى يؤثر على الشخصية من حيث الحكم على استوائها وعدمه، ولعلنا نلتمس ذلك من القرآن والسنة، وهما المعيار الثابت للشخصية السوية وغيرها، فمن تلك الملامح البارزة للشخصية السوية ما يلى:

١ ـ الإيمان الكامل واليقين المطلق بالله، تعالى، وأنه واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه متفرد بالصفات والأسماء والعبادة، وأنه مدبر هذا الكون والقائم على أمره: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴾[3].

وإن هذا الايمان يقود الشخصية السوية إلى معان أخرى أكمل وأجمل وأفضل، حيث الطمأنينة والسكينة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ... ﴾[4].

(١) انظر: مدخل إلى الطب النفسى، ص ٤٧٢، د/ الزين عباس عمارة.
(٢) انظر: السلوك الإنسانى، ص ٣٦٨، د/ انتصار يونس.
(٣) سورة الأنبياء ـ من الآية (٢٢).
(٤) سورة فصلت ـ الآية (٣٠) وصدر الآية (٣١).

ومن ملامح الشخصية السوية الاهتداء إلى معالى الأمور والابتعاد عن أسافلها، والسير على المنهج القويم والصراط المستقيم، وهى التى وصفها الله بقوله:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

وهى المذكورة فى الجزء الثانى من الآية وهو الذى يمشى سويا، كناية عن الاعتدال والاستقامة، وهو الذى يمشى سويا فى طريق ينظر الناظر إليه فلا يرى فيه عوجا ولا أمْتاً..

(إن الحال الأولى هى حال الشقى المنكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه، الذى يصطدم بنواميسه ومخلوقاته؛ لأنه يعترضها فى سيره، ويتخذ له مسارا غير مسارها، وطريقا غير طريقها، فهو أبداً فى تعثر، وأبداً فى عناء، وأبداً فى ضلال.

والحال الثانية هى حال السعيد المجدود[2] المهتدى، الممتع بهداه، الذى يسير وفق نواميسه فى الطريق اللاحب[3] المعمور، الذى يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد، وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء.. إن حياة الإيمان هى اليسر والاستقامة والقصد..)[4].

٢ ـ إن الشخصية السوية وَسَطٌ فى أحوالها كلها، فلا ترى فيها شَطَطاً ولا غُلُواً، ولا جفاء وجفوة، ولا غلظة، ولا رخاوة، ولا تراخيا يقعدها ويفتر

---

(١) سورة الملك ـ الآية (٢٢).

(٢) المجدود: أى المحظوظ.

(٣) الطريق اللاحب: أى الواضح البين.

(٤) فى ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٤٤، سيد قطب.

بها عن العمل الصالح، ولا تكبُّراً ولا تجبُّراً ولا علوا فى الأرض، بل هى شخصية عباد الله المخلصين، عباد الرحمن الخاشعين المخبتين لربهم، ولا نجد لهم وصفا أكمل وأجمل من وصف القرآن لهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1].

وأصحاب الشخصية السوية هم الذين حسن خلقهم، وكمل تعاملهم مع غيرهم، فلا يظلمون الناس، وبالتالى لا يسمحون لأحد بأن يظلمهم، فهم فى عون الناس، والناس يحبونهم ويألفونهم لتواضعهم ولين جانبهم، الذين وصفهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله الجامع: (إن أحبكم إلَىَّ وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلَىَّ وأبعدكم منى فى الآخرة مساوئكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)[2].

والأمة الإسلامية، فى جملتها، شخصيتها سوية بالنسبة لبقية الأمم لسيرها على المنهج الحق الذى لم تطله يد بشر بالتحريف، ولأن منهجها الإسلامى وَسَطٌ، ولقد شهد لها خالقها بذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[3].

٣ ـ والخلاصة، أن الشخصية السوية هى الجامعة لخصال الخير بقدر

(١) سورة الفرقان ـ الآيات (٦٣ ـ ٦٧).
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٩٣.
(٣) سورة البقرة ـ من الآية (١٤٣).

استطاعتها، أو الساعية لها المحبة لها، هى التى تأتى أوامر ربها، وتجتنب نواهيه ومحرماته، وهى المؤمنة بقضاء الله وقدره، ذات التكيف السريع مع كل وضع وحال، رضاء بذلك القضاء الربانى، وهى الرجاعة عن المعاصى الأوابة المخبتة لربها..

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ثانيا: الشخصية غير السوية:

نقصد بها الشخصية المريضة المنحرفة عن السلوك السوى المتعارف عليه عند العقلاء الراشدين، وهذا المرض أنواع شتى منه ما هو عقلى مثل الذهان بأنواعه، وآخر نفسى وعقلى مثل العصاب بأنواعه أيضا[2].

وقد تحدث علماء النفس عن الشخصية المرضية بأنواعها مثل الشخصية العصابية والشخصية الذهانية، والشخصية اللاأخلاقية وغير المتوازنة...

ونحن هنا يهمنا بصفة أساسية المرض النفسى للشخصية بالدرجة الأولى؛ وذلك لأن الآخر يمكن التماس العلاج له بواسطة الطب البدنى؛ لأنه ناشئ عن مرض عضوى.

وسوف نقتصر على عدد يسير من ملامح الشخصية المريضة.

١ ـ الشخصية الشهوانية:

هذه الشخصية من ملامحها البارزة التقلب فى أهوائها من حال إلى حال، فهى لا تثبت على حال بعينه، وشخصيتها متذبذبة متنقلة طوافة، كما

(١) سورة آل عمران ـ الآية (١٣٥).

(٢) انظر: من علم النفس القرآنى، ص ١١٣، د/ عدنان الشريف.

تتسم بالأنانية وحب الذات والجشع الزائد فى جميع ما تقع عليه عينها أو تناله يدها، فهى شرهة نهمة ذات مطامع عريضة وبخيلة بما تحت يدها، كنوز ومقترة، وتتميز بسرعة الانفعال والهور، ويسميها علماء النفس بالشخصية (السيكوباتية)[1].

ومن معالمها الخروج المستمر على التقاليد والعادات والأعراف المألوفة فى البيئة، كما تتميز بالكذب والخداع وتدبير الحيل الماكرة، ولا ينقصها الذكاء، وبالجملة، فهى مخادعة مراوغة انتهازية.

وهذه الشخصية فى حقيقة أمرها ينطوى داخلها على عدد من الشخصيات؛ لأن بعض تلك الأوصاف تتوافر فى عدد ليس بالقليل من الناس، كما نجد لها أوصافا عديدة فى القرآن منها:

وصف القرآن للشخصية المتمردة على القيم والأخلاق الإسلامية وكل ما أنزل الله مما يفيد الإنسان ويهذب سلوكه - وصفه بأقبح الأوصاف وأخس النعوت، بالكلب اللاهث الذى يندلق لسانه ولا يكاد يخفيه، ويعلل القرآن أحد أسباب ذلك أنه جعل هواه قدوة له وأسوة يتأسى به، فغدت حاله كما وصفها القرآن فيما يلى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) انظر: السلك الإنسانى، د/ انتصار يونس.

(٢) سورة الأعراف - الآيتان (١٧٥ و ١٧٦).

وقد نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الشره فى الطعام والنهم فيه تسكينا للنفس وتحسينا لصورة الشخصية المسلمة.

(طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفى الأربعة..)[1].

وجاء فى بعض الروايات بالتضعيف زيادة فى بث الطمانينة وكف النفس عن الجشع والشره، هكذا.

(طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية...)[2].

وجاء فى الأثر لأصحاب العيون الزائغة، والأيدى الطائشة، والنفس التى لا تشبع، والظمأ الذى لا يطفأ، اللاهثين وراء السراب - جاءت لهم هذه السكينة والوصفة الدوائية التى لا يستطيعون ردها، ولا يقدرون على إنكارها:

(إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله). وفى رواية: (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله)[3].

٢ - الشخصية المنافقة:

ومن علامات مرض الشخصية النفاق، وهو أخبثها وأسوؤها وأفتكها بالمجتمع قبل صاحبه؛ ذلك لأن المنافق شره مدفون وعمله السيئ خفى مثل

(١ و ٢) متفق عليه، البخارى، كتاب الأطعمة (١١) طعام الواحد يكفى الاثنين، الفتح ٩/ ٥٣٥ ومسلم: كتاب الأشربة حديث (٣٣) والترمذى: كتاب الأطعمة باب (٢) ٤/ ٢٣٦ والمسند ٢/ ٤٠٧ والدارمى ٢/ ١٠٠ باب طعام الواحد يكفى الاثنين، وكذا بقية كتب السنن.

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه وصححه، برقم ١٠٠٨٧، طبع السلفية بالقاهرة، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤/ ٧٢. ومشكاة المصابيح للتبريزى ٥٣٠٢، والترغيب والترهيب للمنذرى ٢/ ٥٣٥، وذكره أبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء ٦/ ٨٦ طبع مطبعة الخانجى بالقاهرة. ورواه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ١٣ طبع المكتب الإسلامى بدمشق.

السوس فى الحطب أو العظم ينخر من الداخل حتى يقضى على فريسته من غير أن يُرى فَيُتَّقَى شَرُّه، وهو بالتعبير الطبى أشبه بمرض الأورام الخبيثة (السرطان) الذى قل أن ينجو منه مريضه، وهو قاتل للمناعة التحصينية عن الشر مثلما يقتل فيروس مرض نقص المناعة (الإيدز)، صاحبه، فهو يقتل مناعة الخير ويفسح المجال واسعا ليكروب الشر بأشكاله وألوانه؛ ولهذا فقد حذر الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، منه أشد تحذير، ونعته له أوضح نعت، ووصف المنافقين بأشنع الأوصاف، فوصفهم بالكسل والخمول فى أعمال البر، وبالتذبذب والتردد وعدم الإقدام، كما جعلهم فى قاع جهنم جزاء نكالاتهم؛ لأن من صفته وديدنه الخداع والغش، فذلك جزاؤه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1].

وقال، تعالى، فى مصيرهم وجزائهم القانونى العقابى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[2].

ولقد أشار القرآن إلى وصفهم وصفتهم السلوكية (والسايكولوجية) ونعتهم (فيسيولوجيا) أيضا، فلم يترك لهم ظاهرا ولا باطنا إلا وصفه ليتضح أمرهم، وتنجلى غشاوتهم، وتذهب عنهم سحابة الصيف التى تستر ما بداخلهم؛ حتى يكونوا فى العراء يعرفهم الناس ولا ينخدعون بظواهرهم الخاوية على عروش الكبرياء والجبروت!

---

(١) سورة النساء ـ الآيتان (١٤٢ و ١٤٣).

(٢) سورة النساء ـ الآية (١٤٥).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

فهم دائما فى هلع ووجل وخور، لا يعرفون الطمأنينة، وأنَّى لهم ذلك، وشخصياتهم بداخلها المرض العضال الذى لا شفاء له إلا التوبة النصوح والتوجه الخالص.

وكل تلك الأمراض النفسية، وحتى العقلية والعصابية منها، وضع لها القرآن علاجا بل إن قراءة القرآن وتلاوته والمداومة عليها، بتدبر وخشوع وإنابة تشفى النفس من عللها، ولقد دلت التجارب قديما وحديثا على جاذبية القرآن لقلوب وأسماع مستمعيه، ولأذكر حادثتين على ذلك إحداهما قديمة فى بدايات نزول القرآن، والأخرى معاصرة:

قال ابن هشام: وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا[2].

لقد حذب سماع القرآن هؤلاء النفر حتى إنهم لم يستطيعوا أن يوفوا بوعودهم على عدم العودة مرة أخرى بالرغم من تحذيرهم بعضهم لبعض بأن ذلك يضر بمصداقيتهم الاجتماعية بين قومهم، وهم القادة والسادة والرءوس، هذا إذا علمنا أن من شيمهم ألا يخلفوا ما وعدوا به، ولكن شَدّ القرآن لهم

(١) سورة المنافقون ـ الآية (٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢١٨/١، طبع دار التوفيقية بالقاهرة (بدون تاريخ).

كان أقوى من كل شيء جاذب آخر، وإن الذى شد الفكر وجذب العقل لقادر على جذب النفوس وإصلاح عطبها وترميم خللها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾[1].

والنموذج الثانى للتأثير القرآنى على النفس عبارة عن تجربة أجريت فى الغرب لمعرفة وقياس القوة الروحية للقرآن الكريم فى مدينة (بنماستى) بولاية فلوريدا الأمريكية وكانت الدراسة تهدف إلى:

١ ـ إثبات ما إذا كان للقرآن الكريم أى أثر على وظائف أعضاء الجسد.

٢ ـ قياس هذا الأثر (إن وجد) بالتغيرات (الفيسيولوجية) الناتجة عنه.

وكانت هذه التجارب قد أجريت على بعض المتطوعين الأمريكان، ذكورا وإناثا من غير المسلمين وغير الناطقين باللغة العربية الذين تتروح أعمارهم بين (١٧ ـ ٤٠) سنة عن طريق جلسات علاجية بلغ عددها (٤٢) جلسة، وعدد التجارب فى كل جلسة (٥) تجارب فيكون مجموع عدد التجارب (٢١٠) تجربة (إكلينيكية) أشارت نتائجها إلى أن لتلاوة القرآن الكريم فى حد ذاتها ـ بغض النظر عما إذا كانت مفهومة المعنى عند السامع أم لا ـ لها أثر (فيسيولوجى) مهدئ للتوتر فى الجسم البشرى، وكانت النتائج إيجابية بنسبة (٦٥٪)[1].

ونحن إذ نسوق هذا، لا نحاكم القرآن لتجارب البشر، ولكن نحاكم تجاربهم للقرآن، ونصححها به، وعليه، فإن وافقته فَبِهَا ونعمت، وإلا فهى مردودة، ولكن يبقى مجال مدى فهمنا نحن للقرآن، مع إعجازه المستمر على مدى الدهور وشتى الحقب ومعجزاته التى ما برحت تظهر تباعا مع كل مكتشف حقيقى ثابت؟

---

(١) سورة الإسراء ـ من الآية (٩).

(٢) جريدة (المسلمون) العدد (٣٨٢) الجمعة ٢٧ من ذى القعدة (١٤١٢ هـ ـ ٢٩/٥/ ١٩٩٢ م).